سِلْسِلَةُ رَسَائِلِ رَاحَةِ الأَرْوَاحِ

المجموعة الأولى [1 - 5]

الرسالة الثالثة

حُسْـــنُ الإِفَـــادَةِ

فِي أَهَمِّيَّةِ ومَقَاصِدِ الْعِبَـــادَةِ

مَفْهُومُها وفَضَائِلُهَا ومَقَاصِدُها و أنْواعُهَا وكيفية التذذ بها و أَثرُهَا فِي تَزِكَيةِ النفس

تأليف

راجي رحمة ربه ذي المِنَنْ

الدكتور: أحمد خضر حسنين الحسن

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المحتويات

المقدمة

الحمدُ للهِ الموصوفِ بصفاتِ الكمالِ والجلالِ والجمالِ ، خَلَقَ فسوَّى وقدَّرَ فهَدَى وأكرَمَ فأعطى ، ولمْ يزَلْ خالقاً عظيماً ومعطياً كريماً ، يتجلَّى لكلِّ مخلوقٍ بمددِهِ وعطائِه ، فلم يزلْ بالكرمِ موصوفاً وبالعطاءِ معروفاً ، فله الحمدُ كمَا ينبغِي لكمالِه وجلالِه وجمالِه وحُسنِ تجلِّيه وكمال عطائهِ ، لا أُحصي عليه ثناءً بل هو كما على نفسِه أثنى، كما لا أستطيعُ لنعمتِه شكراً ولو توالى منّي الشكرُ والثناءُ في كل صباحٍ ومساءٍ ، بل وإنْ استمرَّ في كلِّ حركةٍ وسكونٍ أو أخذٍ وعطاءٍ .

وأشهد أنْ لا إله إلا الله وحده شريك له ، شهادةَ عبدٍ شَهِدَ منَّةَ ربِّه عليه بالتوحيد ، ولولاه سبحانه لكنت مِنْ جملة الضالين عن سبيل إثبات العظمة له والتفريد ، البعيدين عن السير على الصراط المستقيم السديد ، فبرحمته هداني وبرأفته يسر لي السير الرشيد **(وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ)** سورة الحجرات (7). والراشدون هم الذين صلحت علومهم وأعمالهم، واستقاموا على الدين القويم، والصراط المستقيم.

وأشهد أنَّ سيدَنا محمداً عبدُه ورسولُه وصفيُّه مِن خلقه وخليلُه، شهادةَ مؤمنٍ آمن به رسولاً ونبياً أرسلَه اللهُ تعالى إلى كافَّة الإنس والجن بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسرجا منيراً ، خُتمت به النبوّات ونُسخت به جميع الرسالات ، فبلَّغ الرسالة كأفضل ما يكون البلاغ، وأدى الأمانة على أكمل ما يكون الأداء ، فلم يلحقه في أدائها سابق ولاحق ، فصلى الله عليه وسلم صلاة وسلاما يليقان بشرف نبوته وعظيم قدره ، وله منا تحية وسلاما يليقان بعلو منزلته عند ربه وارتفاعها في قلوب أحبابه من أمته الذين يشتاقون إلى لقائه صلى الله عليه وسلم ، ويرجون شفاعته .

وبعد : بات من الواضح جداً أنَّ في حياة الكثير من المسلمين إهمال للجانب المعرفي والثقافي الإسلامي ، والدليل على ذلك ما نشاهده عبر بعض القنوات في الانترنت من خلال ما يُسمَّى بمذيع الشارع أو غيره ... فترى بعض الشباب المسلم أو الشابات المسلمات - فضلا عن كبار السن - ليس لهم أدنى إلمام بما هو بَدَهِيٌّ في الإسلام .

فقد سئل عدد منهم : عن اسم النبي محمد صلى الله عليه وسلم فلم يجد في ذاكرته ثلاثة من أسماء أجداده ؟

وسئل عدد منهم : عن بعض قصار السور في القرآن فلم يعرفها ، كما سئل عدد منهم : عن عدد أجزاء القرآن وأحزابه ؛ فلم تسعفه ذاكرته بالإجابة الصحيحة .

كما سئل عدد منهم : عن بعض أسباب المناسبات الإسلامية الشهيرة فبانَ جهلُه ؟؟ والقائمة تطول .

وإذا كان الحال كذلك فلن يُستبعَدَ أن يكون الكثيرون لا يعرفون شيئا عن صلواتهم بل الواقع يؤكد أن عدد المسلمين الملتزمين بإقامتها أقل بكثير من أولئك الغافلين التاركين لها .

ومما لا يقل خطورة عن ذلك هو وجود الالتزام بالعبادات ظاهراً دون أن تكون مصحوبة بالخشوع والخضوع والإجلال لله تعالى أو يملاؤها الحبُّ لله والشوق إلى لقائه تعالى ، وهو ما يمكن أنْ يسمَّى بالناحية الروحية ، ثم خلوّ تلك العبادات من أثر ملموس في سلوك المسلم مع أنها شُرِعَتْ لتهذيب النفوس والترقي بالأخلاق .

* * *   * * * *   * * *

من أجل ذلك كانت هذه الرسالة من سلسلة راحة الأرواح هي الثالثة بعد معرفة الله تعالى ، ومعرفة النفس البشرية ؛ لأنَّ مَنْ عرَفَ اللهَ تعالى قام بواجب العبادة وآداب العبودية ولا بد ، كما أنَّ مَنْ عرَفَ نفسَه جاهدَها في الله تعالى وقادها إلى رضوان الله تعالى وجنته.

ولا بد من لفت الانتباه في هذا التقديم إلى أن الكلام في العبادة وما يتعلق بأنواعها وحِكَمِها ومقاصدها واهتمام المسلمين بها على مر العصور بدءً من الصحابة ومرورا بالصالحين وإلى عصرنا هذا يحتاج إلى مجلد إن لم تكن مجلدات ، ولكن المنحى الذي انتحيته في هذه الرسالة هو ما يتعلق بالاستفادة من العبادة وتحويلها من عادات إلى أن تكون **سبباً قوياً في تهذيب النفوس والارتقاء بالأرواح للتعلق بالله تعالى** في غالب الأوقات إن لم يكن في كلها ، بل والشعور بأنَّ **العبادة غنيمة من أعظم الغنائم** حينما يجد العبد المسلم الوقت الكافي ليؤديها ثم تصير تلك العبادة نوعا من الشعور بالأنس بالله تعالى والفرح به جل جلاله وتباركت أسماؤه ،رزقنا الله وإياكم ذلك .

وقد أسميت هذه الرسالة :

حُسْنُ الإِفَادَةِ فِي أهمِّيَّة ومَقاصِدِ الْعِبَادةِ

هذا واللهَ الكريمَ أسأل أن ينفعني بهذا السلسلة وأن يجعلها خالصةً لوجهه الكريم وأن تكون سبباً في مغفرة ذنبي ورفع درجتي في الجنة وأن يفعل ذلك بالقارئ الكريم والقارئة الكريمة وجزى الله خيراً كلَّ من قرأها أو نشرها أو دل عليها .

راجي رحمة ربه ذي المِنَنْ :

أخوكم : أحمد خضر حسنين الحسن

26/ ربيع الأول – 1442 / الموافق 11/ ديسمبر – 2020

*** * * * * ***

المبحث الأول

مفهوم العبادة وشروطها في ضوء الكتاب والسنة والفرق بينها وبين العبودية

المطلب الأول : مفهوم العبادة وشروط صحتها قبولها وكيف حصل الانحراف في فهمها .

المحور الأول : مفهوم العبادة في الإسلام .

المحور الثاني : بعض مظاهر الانحراف في مفهوم العبادة وتطبيقها .

المحور الثالث : شروط صحة وقبول العبادة .

المطلب الثاني : معنى العبادة في استعمال القرآن الكريم .

المطلب الثالث : معنى العبودية و أثرها في الحياة والفرق بينها وبين العبادة .

المطلب الأول

مفهوم العبادة وشروط قبولها وكيف حصل الانحراف في فهمها

المحور الأول : مفهوم العبادة في الإسلام .

المحور الثاني : بعض مظاهر الانحراف في مفهوم العبادة وتطبيقها .

المحور الثالث : شروط صحة وقبول العبادة في ضوء الكتاب والسنة .

المحور الأول

مفهوم العبادة في الإسلام وشروط قبولها

أولاً : العبادة لغة :

أصل العبادة من مادة (ع ب د) قال في مختار الصحاح : العَبْدُ ضد الحُر ، وتقول عَبْدٌ بيِّن العُبُودَةِ والعُبُودِيَّةِ وأصل العُبُودية الخضوع والذل ، و التَّعْبِيدُ التذليل يُقال طريق مُعَبَّدٌ و التَّعبِيدُ أيضا الاسْتِعْبادُ وهو اتخاذ الشخص عبدا .

وقال ابن منظور رحمه الله : والمعبَّد: المذلَّل والتعبُّد: التذلُّل.. وبعيرٌ معبَّد : مذلَّل. وطريق معبَّد : مسلوك مذلَّل .

ثانياً : العبادة اصطلاحاً : اختلفت أقوال العلماء في مفهوم العبادة وتعريفها، وهذا الاختلاف هو من اختلاف التنوع لا التضاد، أي : إن هذه التعريفات يكمل بعضها بعضاً، والإلمام بكل هذه الأقوال ينتج عنه المفهوم الصحيح للعبادة، ومن هذه الأقوال :

قول ابن القيم (رحمه الله تعالى) : (أصل العبادة : محبة الله، بل إفراده بالمحبة، وأن يكون الحب كله لله، فلا يحب معه سواه، وإنما يحب لأجله وفيه، كما يحب أنبياءه ورسله وملائكته وأولياءه، فمحبتنا لهم من تمام محبته، وليست محبة معه، كمحبة من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحبه، وإذا كانت المحبة له حقيقة عبوديته وسرها : فهي إنما تتحقق باتباع أمره واجتناب نهيه) [1].

وقوله في موطن آخر : (العبادة تجمع أصلين : غاية الحب بغاية الذل والخضوع) [2] .

ولعل أجمع تعريف للعبادة ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في رسالة العبودية بقوله: (**العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة**)[3].

وشرح بعض الباحثين هذا التعريف بقوله [4] :

فالمراد بـ(ما يحبه الله ويرضاه): كل أمر يجري وفق شرع الله سبحانه وتعالى من الواجبات والمندوبات والمباحات.

1- مدارج السالكين، لابن القيم، 1/91 .

2- مدارج السالكين، لابن القيم، 1/77 .

3- العبودية لابن تيمية، ص4 - طبعة : بشير عيون .

4- مقال : أضواء على تعريف العبادة – للأستاذ الدكتور مصطفى مسلم – شبكة الألوكة الشرعية – بتصرف وزيادات .

وتظهر العبادة في جانب امتثال الأوامر قولا وعملا : كالصلاة والزكاة والصيام والحج وصدق الحديث وأداء الأمانة وبرّ الوالدين وصلة الأرحام والوفاء بالعهود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد للكفار والمنافقين والإحسان للجار واليتيم والمسكين وابن السبيل،والدعاء والذكر والقراءة وأمثال ذلك من العبادة .

وتظهر العبادة في جانب ترك المنهيات : فإن الله يحب أن نترك ما نهانا عنه من الأقوال والأفعال ، كما قل النبي صلى الله عليه وسلم (إِنَّ اللَّهَ كَرِهَ لَكُمْ ثَلاَثًا: قِيلَ وَقَالَ، وَإِضَاعَةَ المَالِ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ) [5]متفق عليه ؛ فمن ترك ذلك فقد أرضى ربه.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى : وقد قال تعالى عقب ذكر ما حرمه من المحرمات من عند قوله: تعالى : (فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا) إلى قوله: (وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ) إلى قوله: (وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا) إلى قوله: (وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ) إلى قوله: (وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ) إلى قوله: (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ) إلى آخر الآيات؛ ثم قال: (كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا) سورة الإسراء (31-38) .

وفي الحديث الصحيح : (إن الله عز وجل كره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال) فالسلف كانوا يستعملون الكراهة في معناها الذي استعملت فيه في كلام الله ورسوله، ولكنِ المتأخرون اصطلحوا على تخصيص الكراهة بما ليس بمحرم، وتركه أرجح من فعله [6].

والمراد بقوله (الباطنة والظاهرة) فهناك أعمال للقلوب وهي باطنة لا يطلع عليها إلا الله سبحانه وتعالى، وقد نحس بآثارها على المتصف بها وهي كثيرة كحب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وخشية الله والإنابة إليه وإخلاص الدين له والصبر لحكمه والشكر لنعمه والرضا بقضائه والتوكل عليه والرجاء لرحمته والخوف من عذابه وأمثال ذلك هي من العبادة لله .

أما الأقوال والأعمال الظاهرة : فكل ما نقوله ضمن حدود الشرع وأحكامه وما نعمله من أعمال وفق أحكام الشرع وليست متناقضة معها فهو داخل في العبادة. فالأب عندما يؤدب أولاده قال قولاً ظاهراً فهو في عبادة، والمدرس إذا ألقى درساً في أي موضوع تجريبي تطبيقي- مسألة في الرياضيات، أو معادلة كيماوية، أو قانوناً طبيعياً- أو في علم نظري: في التربية أو مهارة أدبية في

5- لفظ: (كَرِهَ) في هذا الحديث : لا يقصد به مصطلح "المكروه" الذي استقر عليه اصطلاح أهل العلم، والذي يعنون به المنهي عنه نهيا أخف من الحرام ، ويعرفونه بأنه :" ما تركه خير من فعله " ، أو: " ما نهى عنه نهيا غير جازم " ، أو: " ما يثاب عليه تاركه، ولا يعاقب فاعله". لأن هذا المعنى للمكروه لم يكن متداولا بين العرب الذين خاطبهم النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الحديث؛ فلا يصح أن يفسرّبه الحديث.

6- إعلام الموقعين (2 / 81).(نقلا عن موقع الإسلام سؤال وجواب) .

التعبير فكأنما قال حكماً شرعياً في الفقه أو الحديث النبوي أو التفسير، فهو مأجور على كل ذلك لأنه أوصل منفعة لطلابه يستفيدون منها في حياتهم العلمية والعملية.

وقد ورد في القرآن الكريم مما يصف أهل الإيمان بالأعمال الظاهرة والباطن الممدوحة : كقوله تعالى: ﴿**إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً**﴾ [الأحزاب: 35].

*** * * * * ***

ثالثاً : ما أجمل ما قاله الدكتور محمد راتب النابلسي :

من أدق تعريفات العبادة أنها **طاعة طوعية، ممزوجة بمحبة قلبية، أساسها معرفة يقينية، تفضي إلى سعادة أبدية، دقق هنالك جانب معرفي، وجانب سلوكي، وجانب جمالي.**

الجانب المعرفي : افعل ولا تفعل، أن تأتمر بما أمر به الله، وأن تنتهي عما نهى عنه، **والأصل هو الجانب السلوكي** : ولكن هذا الجانب السلوكي يحتاج إلى معرفة، فالمعرفة هي السبب، والسعادة هي النتيجة، يوجد أصل، وسبب ونتيجة، فالعبادة طاعة طوعية، ما أرادها الله أن تكون قسرية، بل أرادها أن تكون ممزوجة بمحبة قلبية.

الجانب الجمالي : هو ما يجده العبد من الطمأنينة القلبية عند قيامه بالطاعة بل ويجد راحة نفسية لا يستطيع أن يعبر عنها لغيره .**فما عبدَ اللهَ مَنْ أحبَّه ولم يطعْه، وما عبدَ اللهَ مَنْ أطاعه ولم يحبَّه، لا بد أن يحبه ويطيعه، العبادة بدون محبة لا قيمة لها، والمحبة بدون عبادة لا معنى لها**[7] .

*** * * * * ***

رابعاً : خلاصة القول :

العبادة في الإسلام تشمل حياة الإنسان كلها؛ أقواله وأفعاله، حركاته وسكناته، ظاهره وباطنه، علاقاته الأسرية والاجتماعية والدولية... ﴿**قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**

7- موسوعة النابلسي - المحاضرة : 06 - مسجد الحمصي : أصل العبودية معرفة الله .

* **لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ**﴾ [الأنعام: 162، 163]. إنها حق لازم على العبد حتى يموت، وقد قال سبحانه: ﴿**وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ**﴾ [الحجر: 99].

وهكذا وسع الله تعالى دائرة العبادة ، فجعل الله -تبارك وتعالى- خدمة الناس ومعونتهم وصلتهم، وحتى ما يقضون به مصالحهم وحاجاتهم وشهواتهم المشروعة، يجعل ذلك كله عبادة تستحق الأجر والمثوبة، وتمنع البلاء والعقوبة، وتستنزل الرحمة والمعونة.

وأعجبتني عبارة سمعتها من الدكتور محمد راتب النابلسي وفقه الله : العبادة تبدأ من فراش الزوجية وتنتهي بالعلاقة الدولية .

*** * * * * ***

المحور الثاني

بعض مظاهر الانحراف في مفهوم العبادة وتطبيقها

بعد أن اتضح لنا مفهوم العبادة الحقة كما عرضناها من فهم العلماء الربانيين للكتاب والسنة كان لا بد بعد ذلك من عرض هذه المفاهيم العظيمة والحقائق الضخمة على واقعنا نحن المسلمين في هذه الأزمنة المتأخرة، وهل هذا الفهم الصحيح للعبادة هو السائد اليوم بين المسلمين ؟ أم أن هذا الفهم قد اعتراه من الضعف والانحراف الشيء الكثير ؟[8] :

إن المتأمل في حال المسلمين الأليم، والغربة التي يعيشها أهل الإسلام اليوم سيجد كثيراً من المفاهيم العقدية قد انحرفت عند كثير من عامة المسلمين إلا من رحم الله عز وجل، فهناك انحراف في معنى التوحيد والعبادة، وفي عقيدة اليوم الآخر، وانحراف في عقيدة القضاء والقدر، ولقد ساهم في هذه الانحرافات غزو أعداء المسلمين لديار المسلمين بثقافاتهم الكافرة وأفكارهم المنحرفة، وقابل هذا الغزو من الأفكار جهلٌ عند كثير من المسلمين بدينهم، وعجز عند أكثر علماء الأمة عن تعليم الناس والوقوف في وجه هذا الغزو، (فوافق الغزو قلباً خالياً فتمكنا) .

من هنا أحببت بيان بعض مظاهر الانحراف والضعف في مفهوم العبادة، فمن ذلك ما يلي:

1- الانحراف في مفهوم العبادة عند بعض العوام من المسلمين :

وهو النظر إلى العبادة على أنها أداء للشعائر التعبدية من : صلاة، وصيام، وحج، وذبح، وقراءة قرآن ... فحسب، وأن ما سوى ذلك من معاملات، وأخلاقيات، ومباحات .. وغيرها، كل ذلك لا يدخل في العبادة .

نعم إن هذا المفهوم هو السائد عند بعض المسلمين، سواء أقالوه بلسان مقالهم أم بلسان حالهم وأعمالهم، ولا أدل على ذلك من أننا قد نجد ذاك العبد المصلي، الصائم، القارئ للقرآن، بعد فراغه من هذه الشعائر التعبدية لا يتورع أن يغشّ، أو يرائي، أو يظلم، أو يملأ بيته من آلات اللهو ووسائل الإفساد ما الله به عليم.

* * *   * * * *   * * *

8- المفهوم الصحيح للعبادة ومظاهر انحرافه وضعفه – الأستاذ عبد العزيز بن ناصر الجليل – مجلة البيان - الجمعة 26 ربيع الآخر 1442 هـ - الموافق 11/12/2020م – ومحاضرة : العبودية الصحيحة - للشيخ : سفر الحوالي – محاضرات مفرغة – إسلام ويب – بتصرف.

وكذلك قد نرى المرأة المصلية الصائمة لا تتورع عن التصرف في نفسها بما يخالف الشرع، من سفور، أو زينة محرمة، أو اختلاط .. أو غيره . وإذا نصح مثل هؤلاء الناس، قالوا : إنهم من المصلين العابدين، وقد انتهى وقت العبادة ! وهكذا تنحرف الغايات، وتنشأ اللوثات، وتفسد النيات، وذلك كمن يفصل أمر تعليمه وتعليم أولاده عن غاية العبادة لله عز وجل، ويربط ذلك بالشهادة والمال والوظيفة، بل يستخدم أي وسيلة توصله إلى ذلك .

وقد كانت بداية الانحراف في أنَّ جيل الصحابة رضي الله عنهم الذي عرف حقيقة الإخلاص، وحقيقة العبودية، وبلغ الدرجة العليا في العبودية لله - كما تقدم - ،لم يبق هو المعيار والقدوة، فجاءت أجيالٌ من بعده انحرفت في مفهوم العبودية، ولم تعرف ما هي العبودية الصحيحة، ولا كيف تقدم العبودية لله عز وجل.

إذن : فالواجب على كل مسلم أن يعلم أنه ما خلق إلا للعبادة، وأن وقته يجب أن يكون في عبادة؛ سواء ما كان منه في الشعائر التعبدية، أو ما كان منه في المعاملات، أو ما كان منه في المباحات، فيراقب ربه في كل أعماله، وينوي بها التقرب إليه عز وجل والاستعانة بها على طاعته .

إن هذا الشعور وهذه النية تجعل العبد في كل أعماله حتى في مباحاته ولذاته عبداً لله، مسلماً وجهه لربه عز وجل ، (**قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ * لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَ أَنَا أَوَّلُ المُسْلِمِينَ**) [الأنعام : 162، 163] .

هذا مما وقع فيه المسلمون ومما انحرفوا في فهمه، فلم يفهموا من العبودية إلا أنواعاً معينة، وتركوا أنواعاً أخرى .

* * *   * * * *   * * *

2- الانحراف في مفهوم العبادة في مصدر التلقي عند العلمانيين :

ترتب على الانحراف السابق في مفهوم العبادة انحراف أشد خطراً وأسوأ أثراً، حيث كان الانحراف السابق ذكره منحصراً على مستوى الفرد، بينما هذا الانحراف الذي نحن بصدده يتمثل في النظم التي تحكم في أكثر بلدان المسلمين اليوم، والتي يسعى أربابها إلى عزل الدين عن الحياة وتوجيهها وتنظيمها، وحصره بين جدران المسجد وأداء الشعائر التعبدية، ولسان مقالهم أو حالهم يردد تلك المقولة الجاهلية، والتي قالها أصحاب مدين لنبيهم شعيب عليه الصلاة والسلام ويقولها العلمانيون في زماننا : ما للدين وحجاب المرأة وعملها ؟ ما للدين والسياسة وموالاة الكفار ومحبتهم

؟ ما للدين والاقتصاد ؟ ما للدين والإعلام والتعليم ؟ ... !! إلخ، الدين : أن تعبد الله في المسجد، وتقرأ القرآن، وتذكر الله ... هكذا يزعمون ! ! أما الحياة فلها نظمها التي تتناسب مع تطورها .. إلى آخر هذا الهذيان والانحراف والفجور .

* * *　　　* * * *　　　* * *

إن هذا الفهم الأعوج هو ما قاله أهل مدين لنبيهم شعيب بعد أن دعاهم إلى التوحيد وترك البخس والنقص في المكيال والميزان، قال الله عز وجل : (**قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنْتَ الحَلِيمُ الرَّشِيدُ**) [هود : 87] .

إنهم يقولون : يا شعيب : ما دخل عبادتك وصلاتك في حياتنا الاقتصادية، وفي اتباعنا لآبائنا وطاعتهم فيما كانوا يعبدون .. سبحان الله ! ما أشبه قلوبهم بقلوب الجاهلين في زماننا هذا، وما أشبه مقولتهم بمقولة العلمانيين المنافقين [9] .

والحاصل مما سبق : إذا حصرت العبادة في الشعائر التعبدية فحسب، فما معنى قوله تعالى : (**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ}** [التوبة : 31]، **وما معنى قوله تعالى : (وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ)** [الأنعام : 121]، وقد علق العلامة الشنقيطي رحمه الله على هذه الآية، فيقول :(فهي فتوى سماوية من الخالق (جل وعلا) صرح فيها بأن متبع الشيطان المخالف لتشريع الرحمن مشرك بالله) .

إذن : من أخص خصائص العبادة : الطاعة، والاتباع، والخضوع، والانقياد، فكما أن العبادة تأتي بمعنى الدعاء والنسك، فهي تأتي أيضاً بمعنى الطاعة والاتباع، ولكن الجاهلين أو المتجاهلين يريدون حصرها فقط في الشعائر التعبدية والعبادات الخاصة، ثم لا دخل بعد ذلك للعبادة في شؤون الحياة وتسيير دفتها .

إن الذين يرون هذا الفصل المشين بين الدين والحياة على قسمين :

إما أن يكونوا جهلة بحقيقة الدين وحقيقة العبادة في الإسلام، إذ لم يكن لهم حظ من العلم الشرعي ينير بصائرهم، وإنما غاية ما عندهم ثقافات مشوهة من الغرب أوالشرق تسربت إلى

9- تحدث الأستاذ سيد قطب عن قوله (تعالى) : {أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ}الآية حديثاً قيماً، فضح فيه منطلقات العلمانيين من الدين وتعاليمه ومحاولاتهم الدائبة لفصل الدين عن الحياة بدعاوى ما أنزل الله بها من سلطان، انظر الظلال (آية 87 من سورة هود) .

قلوبهم على حين غفلة وخواء، فتمكنت منها، وهؤلاء وأمثالهم من الذين انحرفوا بمفهوم العبادة عن معناها الصحيح بسبب جهلهم، وقد نرى بعضهم من المصلين، الصائمين، التالين للقرآن الكريم !

وعلاج هذا الصنف من الناس يكون بالعلم الشرعي، والرفق بهم حتى يفقهوا هذا الدين بمعناه الصحيح .

* * *　　* * * *　　* * *

والأخطر من أولئك هم الذين يفهمون حقيقة العبادة وحقيقة دين الإسلام، ولكنهم يستكبرون عن الانقياد لهذا الفهم، وينطلقون بخبث وغرض سيء لإثارة الشبهات، وصرف المسلمين عن دينهم، وتشويه هذه المفاهيم في نفوسهم، وهؤلاء إن صلوا أو قاموا ببعض الشعائر فهو نفاق وزندقة . والحذر من هؤلاء يجب أن يكون على أشده، كما أن فضح أفكارهم وخططهم هو المتعين، فهم من المنافقين الذين جاء الأمر الإلهي بمجاهدتهم، قال تعالى : **(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)** [التحريم : 9] .

* * *　　* * * *　　* * *

3- الانحراف في مفهوم العبادة وتطبيقها عند غلاة المتصوفة :

ومن مظاهر الانحراف في مفهوم العبادة وتطبيقها ما عرف عن بعض غلاة المتصوفة وزنادقتهم من أن أداء العبادات والطاعات مرتبط بحصول اليقين المطلق هكذا زعموا فإذا وصل العبد إلى هذا المستوى سقط عنه التكليف ولم يعد في حاجة إلى العبادة التي هي من منازل العامة !

أما الخاصة : فقد بلغوا درجة اليقين التي ترفع عنهم التكاليف والعبادات -نعوذ بالله من هذه الحال - ونبرأ إلى الله عز وجل من أهل الزندقة والإلحاد[10] .

ومن شطحات الصوفية في مفهوم العبادة أيضاً : المقالة المشهورة عن بعضهم من أنهم **(لا يعبدون الله خوفاً من ناره، ولا طمعاً في جنته، و إنما حبّاً له وشوقاً إليه)** .

وواضح ما في هذا الكلام من تكلف وانحراف عن طريق الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام)، وسؤالهم

10- وقد فضح الإمام ابن القيم هؤلاء المتصوفة الزنادقة في مدارج السالكين - (1/103- 104) .

الله عز وجل جنته وتعوذهم به من النار، **يقول شيخ الإسلام**[11] رحمه الله تعالى في معرض رده على هذه المقالة: (**كان أفضل الخلق يسأل الله الجنة ويستعيذ به من النار، ولما سأل بعض أصحابه عما يقول في صلاته، قال: إني أسأل الله الجنة وأعوذ بالله من النار، أما إني لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ، فقال: (حولها ندندن)** [12].

وقال من قال من السلف: (من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري (أي خارجي)؛ ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحد) .

إذن: فالعبادة الحقة هي التي تجمع بين المحبة والخوف والرجاء والذلة والخضوع، كماسبق ذلك في تعريف العبادة وحقيقتها .

*** * * * * ***

11- تفسير قوله تعالى (لا إلَهَ إلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) [الأنبياء: 87] لابن تيمية، تحقيق: عبد العلي حامد - ص13 .

12- رواه أبو داود وهو صحيح ابن ماجه (748) .

المحور الثالث

شروط صحة وقبول العبادة في ضوء الكتاب والسنة

والمراد بالعبادة هنا الأعمال الصالحة المشروعة للتقرب إلى الله تعالى ذات الحدود المعلومة ، كالصلاة والصيام والحج ، إذ لا بد من بيان شروط صحتها وشروط قبولها والتنبيه إلى أهمية سؤال الله تعالى أن يتقبلها منا ، وذلك في النقاط الآتية :

أولاً : شرطا صحة العبادة : فمن المعلوم أن كل عبادة لا تصح إلا بشرطين أساسين ، وهما [13] :

الشرط الأول : الإخلاص لله تعالى؛ بأن يقصد الإنسان بعبادته مرضاة الله -سبحانه وتعالى-، والوصول إلى دار كرامته، لا يقصد بذلك شيئاً من الدنيا؛ لأن من أراد بعمله شيئاً آخر من أمور الدنيا حبط عمله، قال الله -تبارك وتعالى-: **(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ ۞ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)** [هود:15-16] .

وقال تعالى: (مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ) [الشورى:20] بعض الناس يذهب إلى الحج للترفه والنزهة ورؤية الناس، وبعض الناس يأخذ الحج لغيره نيابة لأجل الدنيا -لأجل المال- وكل من أراد بعمله الذي يتقرب به إلى الله شيئاً من الدنيا فإنه لا يقبل منه.

والشرط الثاني : المتابعة للرسول عليه الصلاة والسلام : لأنه لا يمكن أن تقبل أي عبادة إلا على نحو ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم لقول الله تبارك وتعالى : **(شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ)** [الشورى:13] **وقال تعالى: (أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ)** [الشورى:21] **.قال ذلك منكراً عليهم.**

وقال الله تعالى في الحديث القدسي: (أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه) فلا بد من المتابعة والإخلاص، وقد ثبت عن النبي -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- أنه قال: (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد) .

13- الموقع الرسمي للعلامة ابن عثيمين .

ثانياً : هل مِن شروطِ قبولِ العملِ الصَّالح أنْ يكونَ صاحبُهُ من المتقين ؟ [14] :

بداية يجب لفات الانتباه إلى أن المعوَّل على القبول لا على كثرة العمل، فمن قُبل منه نُجِّي وفاز، ومن رُدّ عمله خسروخاب.

فمِن شروطِ قبول العمل الصالح أن يكون العامل مِن المؤمنين: قال تعالى : (وَمَنْ أَرَادَ الْآَخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ) [الإسراء:19]، أما أن يكون العامل مِن المتقين: نعم يجب أن يكون مِن المتقين في هذا العمل، يعني لا ليس مِن شرطه أن يكون مِن المتقين الكُمَّلِ في جميع أمورهم وفي جميع أحوالهم.

قوله تعالى: (إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ) [المائدة:27]، يعني قال المفسرون: إنّ المرادَ: إنما يتقبل الله مِن المتقينَ في عملِهم، فشرطُ العمل أن يكون العامِلُ متقيًا لله في عملِه، وذلك يتحققُ بالشَّرطين المذكورين، الإخلاص، فمَن عملَ العملَ لله بإخلاصٍ وبمتابعةٍ وهو مِن المسلمين فهو في هذا العمل مِن المتَّقين، فقد اتقى الله في عملِه، شرطُ العمل أن يتقيَ العبدُ ربَّه في عمله بأن يفعلَه خالصًا لوجهِه وأن يعمله، وأن يكون على وِفقِ ما جاء به النَّبي -صلى الله عليه وسلم-، فمَن كان كذلكَ كان مِن المتقين في هذا العمل .

وقال بعضهم قبول العمل متوقف على حصول التقوى : مستدلا بقول الله تعالى :(إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ)[المائدة: 27] ووردت آثارعن الصحابة وغيرهم يفهم منها هذا المعنى ومن ذلك :

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : لا يَقِلّ عمل مع تقوى ، وكيف يَقِلّ ما يُتقبل .

ودخل سائل على عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : فقال لابنه اعطه ديناراً ،فاعطاه ، فلما انصرف قال ابنه : تقبل الله منك يا أبتاه ، فقال : لو علمت أن الله تقبل مني سجدةً واحدةً ،أو صدقة درهم ،لم يكن غائب أحب إلي من الموت ،تدري ممن يتقبل الله : **(إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ).**

وقال فَضَالَةُ بْنُ عُبَيْدٍ رضي الله عنه : «لَأَنْ أَكُونَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ قَدْ تَقَبَّلَ مِنِّي مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا؛ لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ : (إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ) .

وكتب عمربن عبد العزيزرحمه الله إلى رجل : أوصيك بتقوى الله الذي لا يقبل غيرها ، ولا يرحم إلا عليها ،ولا يثيب إلا عليها ،فإن الواعظين بها كثير، والعاملين بها قليل .

14- تقوى العامل والتقوى في العمل الشيخ د. إبراهيم بن محمد الحقيل – شبكة الألوكة – والموقع الرسمي للشيخ عبد الرحمن بن ناصر البراك - بتصرف .

وَقَالَ عَامِرُبْنُ عَبْدِ اللَّهِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى : «لَحَرْفٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ أُعْطَاهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا جَمِيعًا. فَقِيلَ لَهُ: وَمَا ذَاكَ يَا أَبَا عَمْرٍو؟ قَالَ: أَنْ يَجْعَلَنِي اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ فَإِنَّهُ قَالَ: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ ».

وَقَالَ ابْنُ عَوْنٍ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى : «لَا تَثِقْ بِكَثْرَةِ الْعَمَلِ، فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَيُقْبَلُ مِنْكَ أَمْ لَا، وَلَا تَأْمَنْ ذُنُوبَكَ، فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي كُفِّرَتْ عَنْكَ أَمْ لَا، إِنَّ عَمَلَكَ مُغَيَّبٌ عَنْكَ كُلَّهُ، مَا تَدْرِي مَا اللَّهُ صَانِعٌ فِيهِ، أَيَجْعَلُهُ فِي سِجِّينٍ أَمْ يَجْعَلُهُ فِي عِلِّيِّينَ».

وَكَانَ مُطَرِّفُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: «اللَّهُمَّ تَقَبَّلْ مِنِّي صَلَاةً، اللَّهُمَّ تَقَبَّلْ مِنِّي صِيَامًا، اللَّهُمَّ اكْتُبْ لِي حَسَنَةً، ثُمَّ قَالَ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ ».

* * *   *   *   *   *   * * *

وقَالَ الْحَافِظُ ابْنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: «كَانَتْ هَذِهِ الْآيَةُ يَشْتَدُّ مِنْهَا خَوْفُ السَّلَفِ عَلَى نُفُوسِهِمْ، فَخَافُوا أَنْ لَا يَكُونُوا مِنَ الْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُتَقَبَّلُ مِنْهُمْ.

وَكَانَ السَّلَفُ يُوصُونَ بِإِتْقَانِ الْعَمَلِ وَتَحْسِينِهِ دُونَ مُجَرَّدِ الْإِكْثَارِ مِنْهُ، فَإِنَّ الْعَمَلَ الْقَلِيلَ مَعَ التَّحْسِينِ وَالْإِتْقَانِ أَفْضَلُ مِنَ الْكَثِيرِمَعَ عَدَمِ الْإِتْقَانِ. قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: إِنَّ الرَّجُلَيْنِ لَيَقُومَانِ فِي الصَّفِّ وَبَيْنَ صَلَاتَيْهِمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، كَمْ بَيْنَ مَنْ تَصْعَدُ صَلَاتُهُ لَهَا نُورٌ وَبُرْهَانٌ كَبُرْهَانِ الشَّمْسِ. وَتَقُولُ: حَفِظَكَ اللَّهُ كَمَا حَفِظْتَنِي، وَبَيْنَ مَنْ تُلَفُّ صَلَاتُهُ كَمَا يُلَفُّ الثَّوْبُ الْخَلِقُ وَيُضْرَبُ بِهَا وَجْهُ صَاحِبِهَا، وَتَقُولُ: ضَيَّعَكَ اللَّهُ كَمَا ضَيَّعْتَنِي. فَحَرِيٌّ بِالْمُؤْمِنِ أَنْ يَجْتَهِدَ فِي تَحْصِيلِ التَّقْوَى، وَيُكْثِرَمِنْ سُؤَالِ اللَّهِ تَعَالَى الْقَبُولَ .

والتقوى تكون في العمل وفي العامل :

فتمام التقوى في العمل الصالح : تؤدي إلى تمام قبوله والجزاء عليه، ونقص التقوى في العمل الصالح تجعل قبوله بحسب ما فيه من التقوى، فإذا خلا العمل الصالح من تقوى صاحبه أثناء عمله فلا شيء له فيه؛ لأنه عُمِل لغير الله تعالى، ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: 5].

وأما تقوى العامل : فإن من رحمة الله تعالى بعباده أنه يعامل العامل منهم بحسناته وسيئاته وإن لم يكن متقيا في كل أحواله، ما دام أنه مؤمن لم ينقض إيمانه ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: 7-8].

بل من رحمة الله تعالى أن جعل الأعمال الصالحة مكفرات لما اقترفه العامل من السيئات (إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ)[هود: 114]. فإن نقض إيمانه فلا يقبل له عمل؛ لأن عمل الكافر والمنافق لا يقبل (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) [المائدة: 36]، وقال سبحانه في المنافقين (وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ) [التوبة: 54].

ومن أراد أن يحقق تمام القبول فعليه أن يحقق كمال التقوى في نفسه وفي عمله، ومن عجز عن ذلك -وكلنا كذلك- فليجتهد في تحصيل التقوى في نفسه، وتكميلها في عمله، بحيث ير اقب الله تعالى في كل عمل صالح يعمله، ولا يكون في قلبه أثناء عمله سواه سبحانه.

ثالثاً: على العبد في كل عمل يعمله أن يدعو بالقبول: كما دعا إبراهيم وإسماعيل وهما يبنيان البيت فقالا (رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) [البقرة: 127] ودعا الخليل عليه السلام بدعوات مباركات ختمها بقوله (رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ) [إبراهيم: 40].

والدعاء بقبول العمل سبب لقبوله، كما أن التوبة والاستغفار سببان للقبول؛ كما قال الله سبحانه فيمن استقام ودعاء لنفسه ولوالديه ولذريته وأعلن توبته (أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ) [الأحقاف: 16] أَيْ: هَؤُلَاءِ الْمُتَّصِفُونَ بهذا، التَّائِبُونَ إِلَى اللَّهِ تعالى، الْمُنِيبُونَ إِلَيْهِ، الْمُسْتَدْرِكُونَ مَا فَاتَ بِالتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ، هُمُ الَّذِينَ يَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا، وَيَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ، فَيَغْفِرُ لَهُمُ الْكَثِيرَ مِنَ الزَّلَلِ، وَيَتَقَبَّلُ مِنْهُمُ الْيَسِيرَ مِنَ الْعَمَلِ.

*** * * * * ***

المطلب الثاني

معنى العبادة في استعمال القرآن الكريم

كلمة العبادة بأوضاعها الاشتقاقيَّة المختلفة، ورَدت في سبعة وسبعين ومائتي (277) موضعاً من كتاب الله ولَم تُستعمل العبادة في هذه المواضع كلها بمعناها اللغوي، إلاَّ في موضع واحدٍ ، وهي قوله تعالى: (**عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ**) [الشعراء: 22]. كما أوضحه أحد الباحثين [15].

وجاءت العبادة في الاستعمال القرآني على وجهين[14]:

أحدهما : التوحيد : ومنه قوله تعالى: (**وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا**) [النساء:٣٦] أي: وحدوه.

الثاني : الطاعة : ومنه قوله تعالى: (**أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ**) [يس:٦٠] أي: أن لا تعبدوا الشيطان فتطيعوه في معصية الله .

ولفظ (عبد) ومشتقاته جاء في القرآن على عدة معان، نذكرمنها ما يأتي [16] :

أولاً: بمعنى المؤمنين والكافرين، من ذلك قوله تعالى: (والله بصير بالعباد) (آل عمران:15)، أي: إنه سبحانه عليم بمن آمن به من عباده، ومن كفر به. ومن ذلك قوله عز وجل: (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ) (الأنعام:18).

ثانياً: بمعنى المؤمنين من عباده خاصة، من ذلك قوله تعالى: (**وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ**) (البقرة:207)، **قال الطبري رحمه الله** : والله ذو رحمة واسعة بعباده المؤمنين في عاجلهم وآجل معادهم، فينجز لهم الثواب على ما أبلوا في طاعته في الدنيا، ويسكنهم جناته على ما عملوا فيها من مرضاته.

ثالثاً: بمعنى الكافرين والعاصين من عباده خاصة، من ذلك قوله سبحانه: (**يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ**) (يس:30)، أي: يا حسرة على الكافرين بأنعم الله، والمكذبين لرسله وندامتهم يوم القيامة، إذا عاينوا

15- وهذه هي الصور التي جاءَت عليها ألفاظ العبادة في القرآن الكريم - الأرقام الموجودة بجوار الكلمات تُشير إلى عدد مرات وجودها في القرآن الكريم :- عبد (1)، عبدتُم (1)، عبدنا (1)، عبدناهم (1)، تعبد (3)، أعبد (13)، تعبدوا (7)، تعبدون (23)، نعبد (7)، نعبدهم (1)، يعبد (8)، يعبدون (12)، ليعبدون (1)، يعبدوها (1)، يعبدونني (1)، يعبدون (1)، يعبدوا (3)، أعبد (3)، فاعبدني (1)، فاعبده (2)، اعبدوا (21)، فاعبدون (3)، فاعبدوني (1)، اعبدوه (6)، عبدت (1).العبد (10)، عبدًا (6)، عبدنا (5)، عبده (7)، عبدين (1)، العباد (20)، عبادي (4)، عبادًا (2)، عبادك (9)، عبادكم (1)، عبادنا (12)، عباده (34)، عبادي (17)، العبيد (5)، عابد (1)، عابدات (1)، عابدون (5)، عابدين (5)، بعبادة (1)، عبادتكم (1)، عبادته (4)، عبادتهم (2)، عبادتي (1).(نقلا عن مقال : ألفاظ العبادة واستعمالها – سيد رزق الطويل – شبكة الألوكة الشرعية).

16/ لفظ (العبادة) في القرآن – إسلام ويب .

العذاب، كيف كذبوا رسل الله، وخالفوا أمر الله. ومن هذا القبيل قوله عز من قائل: **(وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا)** (الإسراء:17).

رابعاً: بمعنى المصطفين والمجتبين من الناس، كالأنبياء وغيرهم، من ذلك قوله تعالى: **(ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا)** (فاطر:32)، أي: اخترنا الخُلَّص من الناس. وعلى هذا النحو قوله عز وجل: **(قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ** اصْطَفَىٰ) (النمل:59).

* * *   *   *   *   *   * * *

خامساً: بمعنى سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم، من ذلك قوله سبحانه: **(وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا)** (الجن:19)، أي: لما قام محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الله، تجمع ضده المشركون، وكادوا له كيداً.

ومن هذا القبيل قوله سبحانه: **(فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ)** (النجم:10). وقوله سبحانه (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى) سورة الإسراء (1) .

سادساً: بمعنى التوحيد : من ذلك قوله تعالى: **(وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا)** (النساء:36)، أي: ذلُّوا لله بالطاعة، واخضعوا له بها، وأفردوه بالربوبية، وأخلصوا له بالانتهاء إلى أمره، والانزجار عن نهيه. وعلى هذا النحو قوله عز من قائل: **(أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ)** (المائدة:117).

سابعاً: بمعنى الطاعة، من ذلك قوله سبحانه : **(فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ)** (العنكبوت:56)، قال الطبري: فأخلصوا لي عبادتكم وطاعتكم، ولا تطيعوا في معصيتي أحداً من خلقي. ونحو ذلك قوله تعالى: **(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ)** (سبأ:40). ومجيء لفظ (**العبادة**) بمعنى (**الطاعة**) كثير في القرآن.

ومن المفيد أن نشير ختاماً إلى أن لفظ (عبد) وما اشتق منه من ألفاظ في القرآن، يحدده أولاً المعنى الشرعي لهذا اللفظ، ثم يحدده ثانياً السياق الذي ورد فيه، والمعنى اللغوي حاضر عند التدقيق والتأمل.

ومن ثم فإن المتأمل، في جميع موارد الجذر (عبد) وما اشتق منه من ألفاظ في القرآن الكريم يلحظ أنه تضمن معناه اللغوي الأوسع، الذي هو الخضوع والذلة، كما تضمن معناه الشرعي بمعنى إفراد الله بالطاعة والعبودية، ثم أخيراً تحدد معناه الأضيق من خلال السياق الذي ورد فيه.

* * *   *   *   *   *   * * *

المطلب الثالث

معنى العبودية و أثرها في الحياة والفرق بينها وبين العبادة

المحور الأول : معنى العبودية : أورد الإمام القشيري عددا من النقولات في مفهوم العبودية :

قال بعض العلماء : العبودية القيام بحق الطاعات بشرط التوقير، والنظر إلى ما حصل منك بعين التقصير، وشهود ما يحصل من مناقبك من التقدير.ونقل عن بعضهم قوله: العبودية ترك الاختيار فيما بدا من الأقدار.

وعن عارف آخر: العبودية التبرؤ من الحول والقوة، والإقرار بما يعطيك ويوليك من الطول والمنة .

وقال ذو النون المصرى رحمه الله : العبودية أن تكون عبده في كل حال كما أنه ربك فى كل حال .

وقد شرحه النجم الرازى بقوله : قلت: العبودية أن تكون عبدا لربك حرًا فى كل حال عن رق الأشياء ولا تكون ربا لشئ؛ فإن العبد وما يملكه لمولاه .

وكمال العبودية لله بأربعة أمور:

الأول : الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخروالقدر خيره وشره.

الثاني : أعمال القلوب كالمحبة والخوف والرجاء واليقين والتوكل ونحوها.

الثالث : أعمال الجوارح بامتثال أوامر الله حسب سنة رسول الله؟.

الر ابع : حسن الخلق: مع الخالق بلزوم العبادة والطاعة، ومع المخلوق بالنصح له، والإحسان إليه. وأشرف أهل الأرض عبوديةً الأنبياء والرسل؛ لكمال معرفتهم بالله وما يجب له.

وكل عبد يتقلب بين ثلاثة أمور: نِعَمٌ من الله تترادف عليه، فواجبه فيها الحمد والشكر. وذنوب اقترفها، فواجبه فيها الاستغفاروالتوبة.ومصائب يبتليه الله بها، فواجبه فيها الصبر. ومن قام بواجب هذه الثلاث فقد أكمل العبودية، وله السعادة في الدنيا والآخرة.

* * *   *   *   *   *   * * *

المحور الثاني : الفرق بين العبودية والعبادة :

روى الإمام أبو القاسم القشيري عن شيخه أبى الدقاق رحمهما الله تعالى عنهما أنه كان يقول :

العبودية أتم من العبادة. فأولا عبادة ثم عبودية، ثم عبودة، فالعبادة للعوام من المؤمنين، والعبودية للخواص، والعبودة لخاص الخاص، ثم قال: وسمعته يقول: العبادة لمن له علم اليقين، والعبودية لمن له عين اليقين، والعبودة لمن له حق اليقين.

ثم قال: وسمعته يقول: العبادة لأصحاب المجاهدات، والعبودية لأرباب المكابدات، والعبودة صفة أهل المشاهدات..فمن لم يدخر عنه - أي عن ربه تعالى - نفسه. فهو صاحب عبادة، ومن لم يبخل عليه بروحه فهو صاحب عبودة) .

وقال بعض العلماء: العبادة جسد، والعبودية روح.والعبادة لها بداية ونهاية كالصلاة والصوم والحج ونحوها. والعبودية عمل قلبي لا ينفك عن العبد، شعور دائم أنك عبدٌ لله.وروح العبادة العبودية، وهي الافتقار الدائم لله.

* * *   * * * *   * * *

المحور الثالث: أثر العبودية لله تعالى في الحياة:

لله تعالى على كل عبد عبوديتان:

عبودية في السراء.. وعبودية في الضراء.. وعبودية فيما يحب.. وعبودية فيما يكره.

وأكثر الناس يعطون العبودية فيما يحبون، والشأن إعطاء العبودية في المكاره.

فالوضوء بالماء البارد في الصيف عبودية، والوضوء بالماء البارد في شدة البرد عبودية.. والصبر عن المعاصي عبودية، والصبر على الجوع عبودية، ولكن فرق بين العبوديتين.

فمن كان قائماً لله بالعبوديتين في حال السراء والضراء، وحال المحبوب والمكروه، فهو من عباد الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وليس لعدوه سلطان عليه.

والله عز وجل يريد من الإنسان تكميل محبوباته وهي أوامره سبحانه، والنفس تريد من الإنسان تكميل محبوباتها وهي الشهوات. والله يريد منا العمل للآخرة، والنفس تريد العمل للدنيا.

وكمال العبودية بحمل النفس على الإيمان والأعمال الصالحة. وتكميل ما يحب الرب في الدنيا، ليكمل للإنسان ما يحب في الآخرة.

قال الله تعالى: (أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ) [العنكبوت: 2- 3].

وقال الله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَ أَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلًا مِنْ غَفُورٍرَحِيمٍ) [فُصِّلَت: 30- 32].

وعليه يمكن أن يقال الحرية متوقفة على تحقيق العبودية [17] : إن الإنسان لا يملك حريته التي ينبغي أن يعتز بها إلا بعد أن يغرس في طوايا قلبه شجرة العبودية لله عز وجل وإلا بعد أن يصطبغ بهذه العبودية كيانه وتهيمن على شعوره عندئذٍ تثمر هذه الشجرة - شجرة العبودية لله – ثمار العبودية الحقيقية.

ومن أراد أن يبحث عن الحرية فليبحث عنها في طوايا عبودية الإنسان لله، إن تاه عن هذا المعين لن يعثر على هذه الحرية قط. إذا علم الإنسان أنه عبد مملوك لله وإذا تحققت هذه المعرفة يقيناً في عقله ثم هيمنت وجداناً على قلبه وكيانه فإنه يملك حرية حقيقية تامة لا يملكها أحد غيره إلا من اتصف بالصفة التي متعه الله عز وجل بها.

الإنسان الذي دان بالعبودية لله، هيمنت العبودية ثقة بالله على كيانه ويقيناً بأنه وحده النافع والضاروبأن منطلقه إلى الحياة منه وأن مرده بعد الحياة إليه لا يمكن أن يهون لطاغية ولا لباغٍ قط، ذلك لأن عبوديته إنما هي لله سبحانه وحده، لا يمكن أن يمارس طغياناً ولا بغياً في جنبات الأرض لأن عبوديته لله تصده عن ذلك فهو يتطامن وينزل عن مستوى الطغاة والبغاة والظالمين إلى مستوى الإنسانية إن كانت لديه قوة تدفعه إلى ذلك العلو، وهو يتسامى من وهدة الذل والضعة إلى مستوى الإنسانية الباسقة إن كان قد ابتلي بضعف في كيانه أو فقرفي ممتلكاته.

وهكذا فإن العبودية لله عز وجل تنزل بالمتألهين - المتعبدين - إلى مستوى الإنسانية وترفع النازلين والواقعين في وهدة الذل إلى مستوى هذه الإنسانية ذاتها.

هذا الإنسان الذي اصطبغ كيانه بذل العبودية لله لا يمكن أن يصبح عبداً لشهواته وأهوائه، بل سيتحرر منها، فلا يمكن للإنسان الذي هيمنت مشاعر العبودية لله عز وجل على كيانه لا يمكن أن ينقاد لمعصية حرمها الله سبحانه وتعالى عليه، يتصارعان كل من عقله ورعوناته ولكن حريته تجعله يتغلب على رعوناته لمصلحة عقله، والحر هو من يستجيب دائماً لنداء العقل ويتسامى فوق نداء الشهوات والأهواء دائماً.

* * *   * * * *   * * *

17- خطبة : مَعين حرية الإنسان عبوديته لله - العلّامة محمد سعيد رمضان البوطي – موقع نسيم الشام .

وقد كان الصحابة -رضي الله عنهم- يفهمون العبودية بالمعنى العام الواسع الشامل، ولذلك لما حققوا العبودية لله، حقق الله تعالى لهم عبودية العالمين من ملوك الفرس، وملوك الروم، ونحن الآن في القرن العشرين، هناك دولتان تتحكمان في العالم وتسيطران على مقدرات العالم في الشرق وفي الغرب، وفي عهد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعهد الصحابة كان هناك دولتان أيضاً، فكان الفرس في الشرق، والروم في الغرب، وكل منهما يتحكم في العالم، وكان أضيع الشعوب على الإطلاق هم شعوب قبائل الجزيرة العربية، فلما جاء النور، وأنزل على محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وجاء الجيل الذي عرف العبودية لله، وحقق العبودية لله تعالى، جعل الله عز وجل ملوك هاتين الدولتين عبيداً لهؤلاء الأعراب، الذين كانوا أعراباً بالأمس، وخرجوا حفاة عراة، لماذا؟! اعبد الله حق عبادته يُسخِّر لك الله عز وجل كل شيء، حتى في عملك اليومي. إذا قمت في الصباح وجعلت الآخرة أكبر همك، جمع الله عز وجل همك، وأعطاك الخير وبارك لك، وإذا جعل الإنسان -والعياذ بالله- الدنيا أكبر همه، شتت الله همه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كُتِبَ له.

فهذا الجيل من الصحابة والتابعين لهم بإحسان الذي تجرد لله عز وجل- وحقق العبودية له سبحانه أخضع الله له العالمين، ولذلك جيء بملوك الروم وملوك الفرس مقيدين بالسلاسل إلى هذه البلاد الجرداء الصحراء، جاءوا عبيداً لمن عبدوا الله عز وجل حق عبادته، فلما ضيَّع المسلمون عبوديتهم لله عز وجل، أصبحوا هم -كما هو واقعنا الآن- عبيداً لهؤلاء الكفار، وما أكثر ما أخذ من بلاد المسلمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

*** * * * * ***

المبحث الثاني

أنواع العبادات في الإسلام و أفضلها وتفاوت الناس فيها

المطلب الأول : أنواع العبادات في الإسلام .

المطلب الثاني : أفضل أنواع العبادات .

المحور الأول : قواعد مهمة في التفاضل بين العبادات .

المحور الثاني : أقوال العلماء فيما هو الأفضل من العبادات .

المطلب الثالث : تفاوت العباد في الإكثار من العبادات وثوابهم عليها .

المطلب الأول

أنواع العبادات في الإسلام

إن العبادة في الإسلام شاملة لكل أمور الدين والدنيا، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (**الإيمانُ بضْعٌ وسَبْعُونَ، أوْ بضْعٌ وسِتُّونَ، شُعْبَةً، فأفْضَلُها قَوْلُ لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ، وأَدْناها إماطَةُ الأذَى عَنِ الطَّرِيقِ، والْحَياءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإيمانِ**) رواه مسلم ، وعبادة الله تتطلب النية الصادقة والإخلاص في العمل والاستقامة.

وتتمثل أنواع العبادات في الإسلام فيما يأتي[18] :

1/ عبادات جسدية : عبادات يؤديها المرء بجسده كالصلاة والوضوء والطهارة والصوم وتلاوة القرآن والذكر والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الخير ونحوها.

والبعض يقسمها إلى قسمين : قولية وفعلية ، فيجعل ما كان قاصرا على اللسان كتلاوة القرآن عبادة قولية وما كان يحتاج إلى حركة وعمل كأداء الصلاة يسمها عبادة فعلية ، والأمر قريب .

2/ عبادات مالية : يؤديها المرء بماله كالزكاة والصدقات والنفقة على الزوجة والأولاد وإغاثة الملهوف بقضاء دينه أو إسقاطه عنه.

3/ عبادات مشتركة (بدنية ومالية) : كالجهاد في سبيل الله والحج والعمرة وصلة الرحم التي تحتاج إلى شيء من المال .

4/ عبادات هي عبارة عن أعمال بشرية عادية : وهي تشمل جميع الأعمال الدنيوية المباحة وقد تتحول إلى فرض كفاية حين لا يوجد من يقوم بها من المسلمين ولا تقوم حياة البشر إلا بها كالطب و الخياطة الهندسة والمحاسبة والزراعة والتجارة والأعمال الوظيفية إلا أنها يجب أن يقصد بها إرضاء الله تعالى.

ومن أجمع ما ورد في السُّنة الشريفة حديث الرجل القوي الذي مر بالنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه فقالوا: لو كان هذا الرجل في سبيل الله يا رسول الله؟! فقال صلى الله عليه وسلم: (**إن كان خرج يسعَى على ولدِه صِغارًا فهو في سبيلِ اللهِ وإن كان خرج يسعَى على أبوَيْن شيخَيْن كبيرَيْن**

18/ مفهوم العبادة ومقاصدها في الإسلام - موقع طريق الإسلام - ومجلة البيان العدد: 157 رمضان 1421- ديسمبر2000 – (بتصرف) .

فهو في سبيلِ اللهِ وإن كان خرج يسعَى على نفسِه يعفُّها فهو في سبيلِ اللهِ وإن كان خرج يسعَى رياءً ومُفاخَرةً فهو في سبيلِ الشَّيطانِ) [19] .

وفي الصحيحين من حديث سعد -رضي الله عنه- لما ذهب النبي صلى الله عليه وسلم يعوده في عام حجة الوداع: (وإنك لاتنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أُجرت عليها، حتى ما تجعله في في امر أتك). قال: فقلت: يا رسول الله، أخلف بعد أصحابي؟ قال: (إنك لن تخلف فتعمل عملًا تبتغي به وجه الله إلا ازدت به درجة ورفعة).

5/عبادات عقلية وفكرية : كالتأمل في مخلوقات الله الذي يؤدي إلى تقوية الإيمان وتعميقه واليقين في عظمة الله وقدرته. قال الله تعالى: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) [آل عمران: 190-191].

6/ عبادات قلبية : وهي التي بدونها لا يصح شيء من الأنواع السابقة ، أعني عبودية الإيمان بالله تعالى والإخلاص له ومحبته والخوف منه والرجاء فيما عنده وما شاكلها ، وهي التي تسمى الأعمال القلبية المحمودة ، وهناك صفات قلبية مذمومة يجب أن ينقى القلب منها وهي الحسد والكبر والعجب وما شاكلها .

*** * * * * ***

[19]- أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب – (107/3) وقال : رجاله رجال الصحيح ، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب – رقم (1692) وصحيح الجامع – رقم (1428) .

المطلب الثاني

أفضل أنواع العبادات

المحور الأول : ست قواعد مهمة في التفاضل بين العبادات .

المحور الثاني : أقوال العلماء فيما هو الأفضل من العبادات .

المحور الأول

ست قواعد مهمة في التفاضل بين العبادات

قبل بيان ما هي أفضل عبادة التي يؤديها المسلم طلبا لمرضاة الله تعالى كما قال موسى عليه السلام **(وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ)** سورة طه (84) [20] أحببت أن أبين قواعد ستة مهمة ذكرها أهل العلم لتقديم عبادة أو تفضيلها على أخرى ، وهي [21] :

القاعدة الأولى: تقديم الواجبات على النو افل : لأن تأدية الواجبات أفضل عند الله وأحب إليه من تأدية النوافل، ينبغي مراعاة هذا الأصل عند الترجيح بين الأعمال الفاضلة، فإذا ما حصل التزاحم بين عملين فاضلين، قدِّم ما كان تفضيله راجعًا إلى الوجوب على ما كان تفضيله راجعًا إلى سبب آخر من الأسباب المتقدمة في تفاضل الأعمال.

يقول السعدي رحمه الله: "القاعدة الثالثة والثلاثون: إذا تزاحمت المصالح قدم الأعلى منها، فيقدم الواجب على المستحب، والراجح مصلحة على المرجوح.." [22] .

يقول السعدي: "وكذلك يجب تقديم ما تجب نفقته على الصدقة المستحبة، وتقديم طاعة من تجب طاعته على من تستحب طاعته، وأمثلة تزاحم الواجب والمسنون كثيرة، فإن تزاحم واجبان أو مسنونان قُدِّم الأعلى منهما، فتقدم المرأة طاعة زوجها على طاعة أبويها، إذا لم يمكن الجمع بينهما، ويقدم العبد طاعة الله على طاعة كل أحد، ولهذا لا يطيع والديه في منعهما له من الحج المتعين والجهاد المتعين" [23] .

***   *   *   *   *   ***

القاعدة الثانية: تقديم السُّنن الر اتبة على السُّنن المطلقة :

وذلك لمكانة السنن الرواتب من الدين، وتأكيد الأئمة على أهمية التزامها، بل وذمهم من داوم على تركها، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في جواب من سأله عن حكم من لا يواظب على السنن

20- قال ابن كثير: (وعجلت إليك رب لترضى) أي : لتزداد عني رضا ، وقال القرطبي : فكنى عن ذكر الشوق وصدقه إلى ابتغاء الرضا .

21- باختصار شديد من مقال: قواعد تفاضل الأعمال - د. أشرف عبدالرحمن - شبكة الألوكة .

22- القواعد والأصول الجامعة للسعدي ص 67.

23 - السابق .

الرواتب: "من أصر على تركها دل ذلك على قلة دينه، ورُدت شهادته في مذهب أحمد والشافعي وغيرهما" [24].

وقد نصَّ بعض أهل العلم على تقديمها على السنن المطلقة، وعلى فضلها عليها.

يقول الإمام ابن عبد البرِّرحمه الله في سياق حديثه عن ركعتي الفجر: "وآكد ما يكون من السنن ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يواظب عليه، ويندب إليه ويأمر به،... وأعمال البرّ كلها مرغوب فيها وأفضلها ما واظب رسول الله صلى الله عليه وسلم منها، وسنَّها" [25].

القاعدة الثالثة: تقديم وظائف الأوقات والأحوال في الأوقات والأحوال التي شرعت فيها على غيرها من العبادات :

يقول ابن القيم رحمه الله: "قالوا: إن أفضل العبادة العمل على مرضاة الرب في كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته.

- **والأفضل في وقت حضور الضيف مثلًا:** القيام بحقِّه والاشتغال به عن الورد المستحب، وكذلك في أداء حق الزوجة والأهل.

- **والأفضل في أوقات السِّحر:** الاشتغال بالصلاة والقرآن والدعاء والذِّكر والاستغفار.

فالأفضل في كل وقت وحال: إيثار مرضاة الله في ذلك الوقت والحال، والاشتغال بواجب ذلك الوقت ووظيفته ومقتضاه" [26].

*** * * * * ***

القاعدة الرابعة: تقديم الفضائل المتعلقة بذات العبادة على الفضائل المتعلقة بزمانها ومكانها:

يقول ابن تيمية رحمه الله: "ووقوف المأموم بحيث يسمع قراءة الإمام - وإن كان في الصف الثاني أو الثالث - أفضل من الوقوف في طرف الصف الأول مع البعد عن سماع قراءة الإمام؛ لأن الأول صفة

24- الفتاوى الكبرى - لابن تيمية – (2/ 259) .

25- التمهيد – لابن عبد البر – (22/ 71) .

26- مدارج السالكين - لابن القيم - "1/ 88، 89" بتصرف يسير.

في نفس العبادة، فهو أفضل من صفة مكانها، كما رجحنا الرمل مع البعد في الطواف، على الدنو مع ترك الرمل" [27] .

القاعدة الخامسة: إذا تساوى عملان أو أكثر في الفضل، أو رجح أحدهما على الآخر، فالأفضل هو الجمع بين هذه الأعمال دون المداومة على أحدها وترك الآخر.

يقول ابن تيمية رحمه الله: "والسلف كان كل منهم يقرأ ويصلي ويدعو ويذكر على وجه مشروع، وأخذ ذلك الوجه عنه أصحابه وأهل بقعته، وقد تكون تلك الوجوه سواء، وقد يكون بعضها أفضل.." [28].

ويقول أيضًا: "لكن هنا مسألة تابعة: وهو أنه مع التساوي أو الفضل أيما أفضل للإنسان، المداومة على نوع واحد من ذلك، أو أن يفعل هذا تارة وهذا تارة كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يفعل؟ فمن الناس من يداوم على نوع من ذلك مختارًا له، أو معتقدًا أنه أفضل، ويرى أن مداومته على ذلك النوع أفضل، وأما أكثرهم فمداومته عادة ومراعاة لعادة أصحابه وأهل طريقته، لا لاعتقاد الفضل. .

ومع هذا فلا ينبغي أن يفهم من هذا التقعيد هنا التهوين من شأن المداومة على بعض أعمال البرّ التي جاءت السُّنة بالمداومة عليها، فقد تقدم فيما مضى من البحث أن المداومة على العمل من أعظم أسباب التفاضل بين الأعمال، كما دلت على ذلك النُّصوص و أقوال أهل العلم.

وإنما التحذير هنا هو من الانقطاع إلى عمل واحد أو أكثر والمداومة عليه مع ترك غيره من أعمال البرِّ، لا المداومة المشروعة على بعض الأعمال التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يداوم عليها، فإن هذه المداومة لا تتنافى مع التقرب إلى الله بغيرها من شعب الإيمان وأعمال البرِّ، كما كان على ذلك النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ومن سار على طريقهم من سلف الأمة الصالح.

*** * * * * ***

القاعدة السادسة : إذا تقابل عملان: أحدهما: ذو شرف في نفسه، والآخر: ذو تعدد وكثرة فأيهما يقدَّم؟. يقول ابن رجب رحمه الله في تقرير القواعد : "القاعدة السابعة عشرة: إذا تقابل عملان أحدهما: ذو شرف في نفسه ورفعة وهو واحد، والآخر: ذو تعدد في نفسه وكثرة، فأيهما يرجَّح؟ ظاهر كلام أحمد رحمه الله تعالى ترجيح الكثرة، ولذلك صور:

27- الأخبار العلمية من الاختيارات الفقهية لابن تيمية، جمع/ علاء الدِّين البعلي، ص 76.

28 - مجموع الفتاوى، لابن تيمية "24/ 246".

أحدها : إذا تعارض صلاة ركعتين طويلتين، وصلاة أربع ركعات في زمن واحد، فالمشهور أن الكثرة أفضل. وحكي عن أحمد رواية أخرى بالعكس، وحكي عنه رواية ثالثة بالتسوية.

والثانية : أهدى بدنة سمينة بعشرة، وبدنتين بعشرة أو بأقل.

قال ابن منصور: قلت لأحمد : بدنتان سمينتان بتسعة، وبدنة بعشرة، قال: ثنتان أعجب إلي.

ورجح الشيخ تقي الدين تفضيل البدنة السمينة، وفي "سنن أبي داود" حديث يدل عليه [29].

والثالثة : رجل قرأ بتدبُّر وتفكُّر سورة، وآخر قرأ في تلك المدة سورًا عديدة.

وقد سئل الإمام أحمد: أيما أحب إليك: الترسُّل أو الإسراع؟ قال: أليس قد جاء بكل حرف كذا وكذا حسنة؟ قالوا له: في السرعة؟ قال: إذا صور الحرف بلسانه ولم يسقط من الهجاء.وهذا ظاهر في ترجيح الكثرة على التدبر.

نقل عنه حرب: أنه كره السرعة، إلا أن يكون لسانه كذلك لا يقدر أن يترسل. وحمل القاضي الكراهة على: إذا لم يبين الحروف..." [30].

وحقيقة هذا القول: التوقف في المفاضلة بين النوعين وعدم الترجيح، بل التوقف في ثبوت التفاضل بينهم من أصله.

وما ذهب إليه ابن حجر من احتمال التساوي في الفضل، وجهه: أن كل عمل يختص بخصيصة ليست موجودة في الآخر.

وإلى هذا أشار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بقوله: "وكثير مما تتنازع الطوائف من الأمة في تفاضل أنواعه لا يكون بينها تفاضل، بل هي متساوية، وقد يكون ما يختص به أحدهما مقاومًا لما يختص به الآخر" [31].

***   *   *   *   *   ***

29- قال الشيخ مشهور بن حسن محقق كتاب تقرير القواعد لابن رجب "1/ 132": يشير المصنف إلى ما أخرجه أبو داود في السنن رقم "2796" عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُضحي بكبش أقرن فحيل، ينظرفي سواد، ويأكل في سواد، ويمشي في سواد. وإسناده صحيح على شرط مسلم.

30- تقرير القواعد وتحرير الفوائد، لابن رجب الحنبلي "1/ 130 - 134".

31- مجموع الفتاوى "24/ 252".

ومن العلماء من رجَّح كل واحد من النوعين باعتبار.

قال ابن الجزري رحمه الله: "وأحسن بعض أئمتنا رحمه الله فقال: إن ثواب قراءة الترتيل والتدبر أجل وأرفع قدرًا، وإن ثواب كثرة القراءة أكثر عددًا. فالأول كمن تصدق بجوهرة عظيمة أو أعتق عبدًا قيمته نفيسة جدًا، والثاني كمن تصدق بعدد كثير من الدراهم أو أعتق عددًا من العبيد قيمتهم رخيصة" [32].

• ومن أهل العلم من سلك مسلك الترجيح والمفاضلة بين النوعين، ثم اختلفوا في الراجح: فمنهم من رجَّح الكثرة، وهو الظاهر من مذهب أحمد كما نقله ابن رجب سابقًا، ومنهم من رجَّح حسن العمل في نفسه وإن قلَّ، ونقله ابن رجب عن ابن تيمية في بعض صور المسألة على ما تقدم.

وهذا القول هو الراجح - إن شاء الله - وهو قول جمهور أهل العلم من السلف والخلف، حكى ذلك عنهم بعض المحققين في صورة التلاوة.

*** * * * * ***

32- : النشر في القراءات العشر، لابن الجزري "1/ 166".

المحور الثاني

أقوال العلماء فيما هو الأفضل من العبادات

للعلماء أقوال فيما هو الأفضل من العبادات وذلك بحسب ما توصلوا إليه من استنباطات مما تو افر لديهم من النصوص التي بينت فضائل وخصائص كثير منها .

وسأذكر هنا فتوى لإسلام ويب ثم أعقِّب بذكر كلام قيِّم للعلامة ابن القيم رحمه الله شرح فيه أقوال أهل العلم في هذه القضية .

ورد لإسلام ويب هذا السؤال [33]: الرجاء ترتيب العبادات حسب الأفضل لأنني أريد الثواب الكبير ولا أعرف الترتيب؟

الإجابة : ترتيب العبادة حسب الأفضلية متعذر، فالعبادة تنقسم إلى عبادة قلبية وعبادة بدنية وعبادة قلبية وبدنية معاً ، فأفضل العبادات على الإطلاق شهادة التوحيد، وأفضل العبادات البدنية الصلاة على القول الراجح، ثم اخْتُلِف في ترتيب باقي أركان الإسلام حسب الأفضلية.

ففي تحفة المحتاج لابن حجر الهيتمي: وأفضل عبادات البدن بعد الشهادتين الصلاة ففرضها أفضل الفروض ونفلها أفضل النوافل، ولا يَرِدُ طلب العلم وحفظ القرآن – في المفاضلة - لأنهما من فروض الكفايات، ويلي الصلاة في الأفضلية الصوم فالحج فالزكاة على ما جزم به بعضهم، وقيل أفضلها الزكاة وقيل الصوم وقيل الحج وقيل غير ذلك. انتهى.

وقال النووي في المجموع : فالمذهب الصحيح المشهور أن الصلاة أفضل من الصوم وسائر عبادات البدن، وقال صاحب المستظهري في كتاب الصيام: اختلف في الصلاة والصوم أيهما أفضل؟ فقال قوم: الصلاة أفضل.

وقال آخرون: الصلاة بمكة أفضل والصوم بالمدينة أفضل، قال: والأول أصح. انتهى.

وقد ثبتت أفضلية بعض الطاعات في بعض الأحاديث الصحيحة وقد حُمِل ذلك على أنه إجابة مخصوصة لسؤال مخصوص تناسب حال كل سائل وما يليق به، ففي الصحيحين واللفظ

33- أفضل العبادات التي يتقرب بها إلى الله - رقم الفتوى: 102104 – بتصرف .

للبخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه: أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم أي الأعمال أفضل، قال: (الصلاة لوقتها وبر الوالدين ثم الجهاد في سبيل الله).

* * *   * * * *   * * *

قال ابن دقيق العيد في إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام: وسؤاله عن أفضل الأعمال طلباً لمعرفة ما ينبغي تقديمه منها، وحرصاً على علم الأصل، ليتأكد القصد إليه وتشتد المحافظة عليه، و"الأعمال" ها هنا لعلها محمولة على الأعمال البدنية، كما قال الفقهاء: أفضل عبادات البدن الصلاة. واحترزوا بذلك عن عبادة المال، وقد تقدم لنا كلام في العمل: هل يتناول عمل القلب، أم لا؟ فإذا جعلناه مخصوصاً بأعمال البدن، تبين من هذا الحديث: أنه لم يرد أعمال القلوب، فإن من عملها ما هو أفضل، كالإيمان.

وقد ورد في بعض الحديث ذكره مصرحاً به أعني الإيمان، فتبين بذلك الحديث أنه أريد بالأعمال ما يدخل في أعمال القلوب.

وقد اختلفت الأحاديث في فضائل الأعمال، وتقديم بعضها على بعض، والذي قيل في هذا: إنها أجوبة مخصوصة لسائل مخصوص، أو من هو في مثل حاله، أو هي مخصوصة ببعض الأحوال التي ترشد القرائن إلى أنها المراد، ومثال ذلك: أن يحمل ما ورد عنه صلى الله عليه وسلم من قوله : **(ألا أخبركم بأفضل أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم؟)** وفسره بذكر الله تعالى على أن يكون ذلك أفضل الأعمال بالنسبة إلى المخاطبين بذلك، أو من هو في مثل حالهم، أو من هو في صفاتهم.

ولو خوطب بذلك الشجاع الباسل المتأهل للنفع الأكبر في القتال لقيل له "الجهاد" ولو خوطب به من لا يقوم مقامه في القتال ولا يتمحض حاله لصلاحية التبتل لذكر الله تعالى، وكان غنياً ينتفع بصدقة ماله لقيل له "الصدقة" وهكذا في بقية أحوال الناس، قد يكون الأفضل في حق هذا مخالفاً في حق ذاك، بحسب ترجيح المصلحة التي تليق به. انتهى.

* * *   * * * *   * * *

قال ابن القيم رحمه الله تعالى 34: أهل مقام (إياك نعبد) لهم في أفضل العبادة و أنفعها وأحقها بالإيثاروالتخصيص أربع طرق ، فهم في ذلك أربعة أصناف :

الصنف الأول : عندهم أنفع العبادات و أفضلها أشقها على النفوس وأصعبها : قالوا : لأنه أبعد الأشياء عن هواها ، وهو حقيقة التعبد . وقالوا : والأجر على قدر المشقة ، ورووا حديثا لا أصل له " أفضل الأعمال أحمزها " أي أصعبها وأشقها .

وهؤلاء : هم أهل المجاهدات والجور على النفوس قالوا : وإنما تستقيم النفوس بذلك ، إذ طبعها الكسل والمهانة ، والإخلاد إلى الأرض ، فلا تستقيم إلا بركوب الأهوال وتحمل المشاق .

الصنف الثاني ، قالوا : أفضل العبادات التجرد ، والزهد في الدنيا ، والتقلل منها غاية الإمكان ، واطراح الاهتمام بها ، وعدم الاكتراث بكل ما هو منها .

ثم هؤلاء قسمان : فعوامهم ظنوا أن هذا غاية ، فشمروا إليه وعملوا عليه ، ودعوا الناس إليه ، وقالوا : هو أفضل من درجة العلم والعبادة ، فرأوا الزهد في الدنيا غاية كل عبادة ورأسها .

وخواصهم رأوا هذا مقصودا لغيره ، وأن المقصود به عكوف القلب على الله ، وجمع الهمة عليه ، وتفريغ القلب لمحبته ، والإنابة إليه ، والتوكل عليه ، والاشتغال بمرضاته ، فرأوا أن أفضل العبادات في الجمعية على الله ، ودوام ذكره بالقلب واللسان ، والاشتغال بمراقبته ، دون كل ما فيه تفريق للقلب وتشتيت له .

* * *   *   *   *   *   * * *

الصنف الثالث : رأوا أن أنفع العبادات و أفضلها : ما كان فيه نفع متعد ، فرأوه أفضل من ذي النفع القاصر ، فرأوا خدمة الفقراء، والاشتغال بمصالح الناس وقضاء حوائجهم ، ومساعدتهم بالمال والجاه والنفع أفضل ، فتصدوا له وعملوا عليه واحتجوا بقول النبي صلى الله عليه وسلم (الخلقُ كلُّهم عيالُ اللهِ فأحَبُّهم إلى اللهِ أنفعُهم لعيالِه) [35] .

34- مدارج السالكين – (107/1) - بتصرف .

35- أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط - (5541)، و أبو نعيم في حلية الأولياء - (2/ 102)، والبيهقي في شعب الإيمان - (7048) بنحوه ، قال السفاريني الحنبلي في شرح كتاب الشهاب حديث رقم (566): جميع رجال إسناده ثقات – (الموسوعة الحديثية – الدرر السنية) .

واحتجوا بأن عمل العابد قاصر على نفسه ، وعمل النفَّاع متعد إلى الغير ، و أين أحدهما من الآخر ؟ . قالوا : ولهذا كان (فضلَ العالمِ على العابدِ كفضلِ القمرِ ليلةَ البدرِ على سائرِ الكواكبِ)[36].

قالوا : وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه : (لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بكَ رَجُلًا واحِدًا، خَيْرٌ لكَ مِن أنْ يَكونَ لكَ حُمْرُ النَّعَمِ) رواه البخاري ، **وهذا التفضيل إنما هو للنفع المتعدي ، واحتجوا بقوله صلى الله عليه وسلم : (مَن دَعا إلى هُدًى، كانَ له مِنَ الأجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَن تَبِعَهُ، لا يَنْقُصُ ذلكَ مِن أُجُورِهِمْ شيئًا)** رواه مسلم .

واحتجوا بأن صاحب العبادة إذا مات انقطع عمله ، وصاحب النفع لا ينقطع عمله ، ما دام نفعه الذي نسب إليه .

واحتجوا بأن الأنبياء إنما بعثوا بالإحسان إلى الخلق وهدايتهم ، ونفعهم في معاشهم ومعادهم ، ولم يبعثوا بالخلوات والانقطاع عن الناس والترهب ، ولهذا أنكر النبي صلى الله عليه وسلم على أولئك النفر الذين هموا بالانقطاع للتعبد[37]**، وترك مخالطة الناس ، ورأى هؤلاء التفرق في أمر الله ، ونفع عباده ، والإحسان إليهم ، أفضل من الجمعية عليه بدون ذلك .**

* * *　　　* * * *　　　* * *

الصنف الرابع ، قالوا : إن أفضل العبادة العمل على مرضاة الرب في كل وقت : بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته ، فأفضل العبادات في وقت الجهاد : الجهاد ، وإن آل إلى ترك الأوراد ، من صلاة الليل وصيام النهار، بل ومن ترك إتمام صلاة الفرض ، كما في حالة الأمن .

والأفضل في وقت حضور الضيف مثلا القيام بحقه ، والاشتغال به عن الورد المستحب ، وكذلك في أداء حق الزوجة والأهل .

---

[36]- جزء من حديث ونصه : قال صلى الله عليه وسلم (من سلك طريقًا يطلبُ فيه علمًا سلك به طريقًا إلى الجنةِ وإنَّ الملائكةَ لَتضعُ أجنحتَها رضًا لطالبِ العلمِ وإنَّ العالمَ لَيستغفِرُ له مَن في السماواتِ والأرضِ والحيتانُ في جوفِ الماءِ وإنَّ فضلَ العالمِ على العابدِ كفضلِ القمرِ ليلةَ البدرِ على سائرِ الكواكبِ وإنَّ العلماءَ ورثةُ الأنبياءِ وإنَّ الأنبياءَ لم يُورِّثوا دينارًا ولا دِرهمًا و إنما ورّثوا العلمَ فمن أخذهُ أخذَ بحظٍّ و افرٍ) أخرجه أبو داود (3641)، والترمذي (2682)، و ابن ماجه (223)، وأحمد (21715) باختلاف يسير، وحسنه ابن حجر في تخريج مشكاة المصابيح - الرقم (151/1) – (الموسوعة الحديثية – الدرر السنية) ..

37- يشير إلى حديث النفر الثلاثة ، ونصه عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه أنَّ نَفَرًا مِن أَصْحَابِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ سَأَلُوا أَزْوَاجَ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ عن عَمَلِهِ في السِّرِّ؟ فَقالَ بَعْضُهُمْ: لا أَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، وَقالَ بَعْضُهُمْ: لا آكُلُ اللَّحْمَ، وَقالَ بَعْضُهُمْ: لا أَنَامُ علَى فِرَاشٍ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَ أَثْنَى عليه. فَقالَ: (ما بَالُ أَقْوَامٍ قالوا كَذَا وَكَذَا؟ لَكِنِّي أُصَلِّي وَ أَنَامُ، وَأَصُومُ وَ أُفْطِرُ، وَ أَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فمَن رَغِبَ عن سُنَّتي فليسَ مِنِّي) رواه مسلم .

والأفضل في أوقات السحر الاشتغال بالصلاة والقرآن ، والدعاء والذكر والاستغفار.

والأفضل في وقت استرشاد الطالب ، وتعليم الجاهل الإقبال على تعليمه والاشتغال به .

والأفضل في أوقات الأذان ترك ما هو فيه من ورده ، والاشتغال بإجابة المؤذن .

والأفضل في أوقات الصلوات الخمس الجد والنصح في إيقاعها على أكمل الوجوه ، والمبادرة إليها في أول الوقت ، والخروج إلى الجامع ، وإن بعد كان أفضل .

* * *   *   *   *   *   * * *

والأفضل في أوقات ضرورة المحتاج إلى المساعدة بالجاه ، أو البدن ، أو المال الاشتغال بمساعدته ، وإغاثة لهفته ، و إيثار ذلك على أورادك وخلوتك .

والأفضل في وقت قراءة القرآن جمعية القلب والهمة على تدبره وتفهمه ، حتى كأن الله تعالى يخاطبك به ، فتجمع قلبك على فهمه وتدبره ، والعزم على تنفيذ أوامره أعظم من جمعية قلب من جاءه كتاب من السلطان على ذلك .

والأفضل في وقت الوقوف بعرفة الاجتهاد في التضرع والدعاء والذكر دون الصوم المُضعِفِ عن ذلك .

والأفضل في أيام عشر ذي الحجة الإكثار من التعبد ، لاسيما التكبير والتهليل والتحميد ، فهو أفضل من الجهاد غير المتعين .

* * *   *   *   *   *   * * *

والأفضل في العشر الأخير من رمضان لزوم المسجد فيه والخلوة والاعتكاف دون التصدي لمخالطة الناس والاشتغال بهم ، حتى إنه أفضل من الإقبال على تعليمهم العلم ، و إقرائهم القرآن ، عند كثير من العلماء .

والأفضل في وقت مرض أخيك المسلم أو موته عيادته ، وحضور جنازته وتشييعه ، وتقديم ذلك على خلوتك وجمعيتك .

والأفضل في وقت نزول الأذى بك من قبل الجهلة من الناس : أداء واجب الصبر مع خلطتك بهم ، دون الهرب منهم ، فإن المؤمن الذي يخالط الناس ليصبر على أذاهم أفضل من الذي لا يخالطهم ولا يؤذونه.

والأفضل خلطة الناس في الخير ، فهي خير من اعتزالهم فيه ، واعتزالهم في الشر ، فهو أفضل من خلطتهم فيه ، فإن علم أنه إذا خالطهم أزاله أو قلله فخلطتهم حينئذ أفضل من اعتزالهم .

فالأفضل في كل وقت وحال إيثار مرضاة الله في ذلك الوقت والحال ، والاشتغال بواجب ذلك الوقت ووظيفته ومقتضاه .

وهؤلاء هم أهل التعبد المطلق ، والأصناف قبلهم أهل التعبد المقيد ، فمتى خرج أحدهم عن النوع الذي تعلق به من العبادة وفارقه يرى نفسه كأنه قد نقص وترك عبادته ، فهو يعبد الله على وجه واحد.

وصاحب التعبد المطلق ليس له غرض في تعبد بعينه يؤثره على غيره ، بل غرضه تتبع مرضاة الله تعالى أين كانت ، فمدار تعبده عليها ، فهو لا يزال متنقلا في منازل العبودية ، كلما رفعت له منزلة عمل على سيره إليها ، واشتغل بها حتى تلوح له منزلة أخرى فهذا دأبه في السير حتى ينتهي سيره .

* * *　　* * * *　　* * *

فإن رأيت العلماء رأيته معهم ، وإن رأيت العباد رأيته معهم ، وإن رأيت المجاهدين رأيته معهم، وإن رأيت الذاكرين رأيته معهم ، وإن رأيت المتصدقين المحسنين رأيته معهم ... وهكذا.

ولو كانت راحة نفسه ولذتها في سواه ، فهذا هو المتحقق ب " إياك نعبد و إياك نستعين " حقا ، القائم بهما صدقا ، ملبسه ما تهيأ ، ومأكله ما تيسر ، واشتغاله بما أمر الله به في كل وقت بوقته ، ومجلسه حيث انتهى به المكان ووجده خاليا ، لا تملكه إشارة ، ولا يتعبده قيد ، ولا يستولي عليه رسم ، حر مجرد ، دائر مع الأمر حيث دار ، يدين بدين الآمر أنى توجهت ركائبه ، ويدور معه حيث استقلت مضاربه ، يأنس به كل محق ، ويستوحش منه كل مبطل ، كالغيث حيث وقع نفع ، وكالنخلة لا يسقط ورقها وكلها منفعة حتى شوكها فهو لله وبالله ومع الله ، قد صحب الله بلا خلق ، وصحب الناس بلا نفس .

بل إذا كان مع الله عزل الخلائق عن البين ، وتخلى عنهم ، وإذا كان مع خلقه عزل نفسه من الوسط وتخلى عنها ، فواها له ! ما أغربه بين الناس ! وما أشد وحشته منهم ! وما أعظم أنسه بالله وفرحه به ، وطمأنينته وسكونه إليه ! ! والله المستعان ، وعليه التكلان .

المطلب الثالث

تفاوت العباد في الإكثار من العبادات وثوابهم عليها

العنوان يشير إلى مسألتين هامتين وإن كان في الإمكان فهما مما سبق لكن أحببت ان أشير إليهما من باب الزيادة في التوضيح والبيان ، وهما :

الأولى : تفاوت العباد في رغبتهم في الإكثار من العبادات :

بعد بيان ما هو الأفضل من العبادات من الناحية العلمية نريد بيان الواقع العملي لما يميل إليه المسلم من العمل الصالح ، ويفتح الله له فيه ليكثر منه ويداوم عليه ، **فقد قرر الإمام مالك بن انس رحمه الله** هذا المعْلَم وذلك لما كتب عبد الله العُمري العابد إلى مالك يحضّه على الانفراد والعمل، فكتب إليه مالك: **إن الله قسم الأعمال كما قسم الأرزاق، فرب رجل فُتح له في الصلاة، ولم يُفتح له في الصوم، وآخرفتح له في الصدقة ولم يفتح له في الصوم، وآخرفتح له في الجهاد، فنشْر العلم من أفضل أعمال البر، وقد رضيت بما فُتح لي فيه، وما أظن ما أنا فه بدون ما أنت فيه، وأرجو أن يكون كلانا على خيروبر** [38] .

وتحدث ابن القيم رحمه الله تعالى عن هذا المعلم فكان مما قاله : الطريق إلى الله واحد، فإنه الحق المبين، **وأما ما يقع في كلام بعض العلماء أن الطريق على الله متعددة متنوعة، جعلها الله كذلك لتنوع الاستعدادات واختلافها رحمة منه وفضلاً فهوصحيح لا ينافي ما ذكرناه من وحدة الطريق. وكشف ذلك و إيضاحه أن الطريق هي واحدة جامعة لكل ما يرضي الله، وما يرضيه متعدد متنوع، فجميع ما يرضيه طريق واحد. وإذا علم هذا :**

فمن الناس من يكون سيد عمله وطريقه الذي يعد سلوكه إلى الله طرق العلم والتعليم، وقد وفر عليه زمانه مبتغياً به وجه الله، فلا يزال كذلك عاكفاً على طريق العلم والتعليم حتى يصل من تلك إلى الله، ويفتح له فيها الفتح الخاص أو يموت في طريق طلبه فيرجى له الوصول إلى مطلبه بعد مماته ، وهكذا .[39]

* * *   * * * *   * * *

38- سير أعلام النبلاء – للذهبي - (114/8).

39- طريق الهجرتين- ص:(178، 179) – باختصار، وانظر: مدارج السالكين - (17/3)، والفوائد - ص:(38) .(نقلا عن موقع الدرر السنية - موسوعة الفرق) بتصرف .

الثانية : تفاوت العباد في حصول الثواب على العبادات :

هذه قضية أخرى قريبة من سابقتها ألا وهي : تفاوت العباد في حصول الثواب على العمل الصالح الذي اشتركوا في أدائه فكان العمل واحدا منهم جميعا بينا تفاوتوا في استحقاق الأجر .

وإذا كان المؤمنون يتفاوتون في الإيمان [40] فلا غرابة أن يتفاوتوا في الحصول على ثواب الأعمال الصالحة التي يقومون بها، قال حافظ حكمي رحمه الله تعالى :

وأهله فيه على تفاضل   هل أنت كالأملاك أو كالرسل

فكما يتفاوتون في مبلغ الإيمان من قلوبهم، يتفاوتون في أعمال الإيمان الظاهرة، هل كل الآلاف الذين يقفون على عرفات، وهم يمارسون نفس العبادة -الحج- في نفس الأرض -عرفات- في نفس الوقت يوم عرفة.. كلهم موجودون في مكان واحد، وفي عبادة واحدة، وفي وقت واحد، ومع ذلك بين الواحد منهم والآخر تفاوت عظيم الله أعلم به.

وترى الناس في صفوف الصلاة، في الظاهر كلهم يصلون ولكن بماذا يتفاضلون؟ لكنهم يتفاوتون في عمل القلب، والحضور والخشوع. وكثرة الذكر لله تعالى وحسن تلاوة القرآن وتدبرها والبكاء ونحو ذلك .

فإن الجماعة في الصلاة صافون كلهم في رأي العين مستوون في القيام والركوع والسجود، والخفض والرفع، والتكبير والتحميد، والتسبيح والتهليل والتلاوة وسائر الأذكار، والحركات والسكنات، في مسجد واحد، ووقت واحد، وخلف إمام واحد، وبينهم من التفاوت والتفاضل ما لا يحصى.

فهذا واحد منهم تجد قرة عينه في الصلاة، يود إطالتها ما دام عمره -وأثقل شيء عليه أن يقترب وقت التسليم حين يخرج من هذه الصلاة؛ فيود إطالتها وآخر يرى نفسه في أضيق سجن، يود انقضاءها في أسرع من طرفة عين، أو يود الخروج منها، بل يتندم على الدخول فيها، وهذا يعبد الله على وجه الحضور والمراقبة، كأنه يشاهد الله، وآخر قلبه في الفلوات، قد تتعدد به الضيعات، وتتفرق به الطرقات، حتى لا يدري ما يقول، ولا ما يفعل، ولا كم صلى.

* * *   * * * *   * * *

40- والآيات والأحاديث والآثار عن الصحابة والتابعين في هذا الباب -باب إثبات تفاضل أهل الإيمان- أكثر من أن تحصر، وأشهر من أن تنكر.

وانظر لحال الناس في شهر رمضان: كلهم يصومون، ثم انظر إلى التفاوت أيضاً بينهم في فرحهم بهذا الشهر، وابتهاجهم بدخوله، واستعدادهم له، قارن مثلاً بين الذي يفرح بقدوم رمضان؛ لأنه سيرى الفوازير والتمثيليات والمسابقات ويأكل ويشرب ويتلهى ويتسلى مع أصدقائه ومعارفه.. قارن هذا بمن كلما مرت ساعة أو لحظة من رمضان تندم عليها لأنه لم يستثمرها أكثر مما استثمرها، حتى إذا حضر آخر رمضان كأنه في مأتم، وأن أحب شيء إليه قد فارقه، وهو أحوج ما كان إليه، كيف تتقطع قلوب المؤمنين بفوات رمضان وسرعة ذهابه [41].

* * *   *   *   *   *   * * *

41- عبودية الكائنات [1-2] - للشيخ : محمد إسماعيل المقدم - محاضرات - موقع إسلام ويب – بتصرف .

المبحث الثالث

مقاصد العبادات والحِكَمة من تنوعها في ضوء الكتاب والسنة

مدخل : الأدلة على مقاصد العبادات .

المطلب الأول : مقاصد العبادات في ضوء الكتاب والسنة إجمالاً.

المطلب الثاني : مقاصد العبادات الأربعة في ضوء الكتاب والسنة تفصيلاً .

المحور الأول : مقاصد الصلاة في ضوء الكتاب والسنة .

المحور الثاني : مقاصد الزكاة في ضوء الكتاب والسنة .

المحور الثالث : مقاصد الصيام في ضوء الكتاب والسنة .

المحور الرابع : مقاصد الحج في ضوء الكتاب والسنة .

المطلب الثالث : الحِكَم من تنوّع العبادات في ضوء الكتاب والسنة .

مدخل

الأدلة على مقاصد العبادات

مما هو معلوم أن الله تعالى لا يشرع شيئاً إلا وهو متضمن لأحسن الحكم ومحقّقٌ لأحسن المصالح، فإن الله تعالى هو العليم، الذي أحاط بكل شيء علماً، الحكيم الذي لا يشرع شيئاً إلا لحكمة.

ودين الإسلام دين مبني -بعد إفراد الله بالعبادة- على الحكمة والخير العميم، ولهذا لم يشرع - سبحانه وتعالى - أحكام هذا الدين دون فوائد مرجوَّة، ومقاصد جليلة، فإنَّ لهذه الشريعة الإسلامية تكاليف سامية المقاصد، نبيلة الفوائد، بديعة الأسرار. ومن المعلوم أنَّ من أسمائه -سبحانه وتعالى-: الحكيم، ومقتضى هذا الاسم أنَّه متَّصفٌ بالحكمة، فكلُّ ما شرعه الله وقدَّره وأمر به فهو لحكمة بالغة [42].

والكلام عن مقاصد العبادات في الإسلام مهم؛ لسببين :

الأول : حتى يعلم غير المسلمين أن كل العبادات في الإسلام لها أثر على حياة المسلمين، وبذلك يفهمون مكانة العبادات في الإسلام.

والثاني : أن هناك بعض العبادات ربما كانت مثار جدل إذا ما نوقشت من زاوية المغزى والهدف المنشود من ورائها، خاصة وأن العقلية الغربية جبلت على مناقشة كل شيء، فلذلك ينبغي أن يتضح هذا في بداية الأمر. فأما عن مقاصد العبادات في الإسلام فهي عديدة.

فالشريعة - كما قال ابن القيم رحمه الله - في إعلام الموقعين-: (مبناها وأساسها الحِكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها) .

وقد ألمح القرآن الكريم إلى هذه المقاصد بصورة مجملةٍ ضمن سياق آيات الحج في قوله سبحانه وتعالى: (**وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * ليشهدوا منافع لهم**) سورة الحج (27) ، وهذه الآية صريحة في اشتمال الحج على منافع للناس، وحمل المنافع المشار إليها في الآية الكريمة على منفعتي الدنيا والآخرة معاً أكثر وجاهة، خاصة وأن تنكير المنافع في الآية يدل على عمومها وكثرتها [43].

42- حِكَمُ العبادات - موقع إمام المسجد .

43- السابق – بتصرف .

إنَّ الله عز وجل شرع العبادات وجعل لها حِكماً عظيمة قد يدركها العقل وقد لا يدركها، فكل ما شرعه الله حق وحكمة، ونفع للعباد، وإن ظنوا أنه غير ذلك، فالله عليم بخلقه، وما يصلحهم، وحكيم في قضائه وتشريعاته .

وحسبنا الإجماع المنعقد على أن المقصد الأعم للشريعة هو جلب المصالح ودرء المفاسد، يقول ابن القيم رحمه الله مؤكدا هذا المعنى: إن الله أرسل رسله و أنزل كتبه بالعدل الذي قامت به السماوات والأرض وكل ما خرج عن العدل إلى الجورومن المصلحة إلى عكسها فليس من الله في شيء، وحيثما ظهرت دلائل العدل واستقروجهه فثم شرع الله وأمره .

فهو- سبحانه - لم يكلِّفنا بالعبادات لأجل الإشقاق علينا، أولنكون قائمين بتطبيقها فحسب، أو لحاجته - تعالى - لنا، كيف وهو يقول: (وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاء) سورة محمد(38) ، بل شرعها - تعالى - لمصلحتنا وتربيتنا، لتكون هذه العبادات زاداً لنا على طريق الهدى، وفي هذا يقول الإمام البيضاوي -رحمه الله-:" إنَّ الاستقراء دلّ على أنَّ الله - سبحانه - شرع أحكامه لمصالح العباد"

وتلك الحكم والمعاني السامقة لا تفهم إلاّ بالبحث والاستقراء والتتبع؛ لما يسمِّيه علماء الإسلام بـ: (فقه المقاصد الشرعية)، ومن المتيقَّن أنَّ الأحكام إذا ربطت بعللها ومقاصدها اقتنع الناس بها، وكان لها دورٌ كبير في تأديتها على الوجه اللاَّئق بها؛ فإنَّ كثيراً من الناس يلتزمون العبادات، بيدَ أنَّهم قد يفقدون روحها ومعانيها، ولعلَّ من أسباب ذلك ضعف علمهم بمقاصدها؛ فيؤدُّون عباداتهم وكأنَّها عادات وتقاليد ورثوها عن آبائهم؛ فلا يشعرون بلذَّتها وحلاوتها، ولا يستفيدون من القيام بها على الوجه المطلوب.

ويمكننا تقسيم مقاصد العبادات إلى قسمين كبيرين من خلال مطلبين :

*** * * * * ***

المطلب الأول

مقاصد العبادات في ضوء الكتاب والسنة إجمالاً

لا يستطيع أحد من البشر الإحاطة بحكمة الله تعالى في تشريعه لتلك العبادات ولكن كشف لنا عن بعضها في كتابه الكريم وعلى لسان رسوله الأمين صلى الله عليه وسلم ، ونحن نذكر طرفا منها على سبيل الإجمال من خلال النقاط التالية: [44]

أولاً : العبادات في الإسلام سبب في سعة الرزق والبركة فيه :

ففي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (**إن الله تعالى يقول : يا بن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى وأسدُّ فقرك ، وإلا تفعل ملأت يديك شغلا ولم أسد فقرك**) [45].

قال العلماء في شرحه [46]: حقيقة الغنى إنما هي في القلب ، وهي القناعة التي يقذفها الله في قلوب من شاء من عباده ، فيرضون معها بما قسم الله ، ولا يتطلعون إلى مطامع الدنيا أو يلهثون وراءها لهث الحريص عليها المستكثر منها ، وقد بين ذلك عليه الصلاة والسلام بقوله : (**ليس الغنى عن كثرة العرَض ، ولكن الغنى غنى النفس**) كما في البخاري ، وقال لأبي ذر رضي الله عنه : (**أترى أن كثرة المال هو الغنى ؟! إنما الغنى غنى القلب ، والفقر فقر القلب ، من كان الغنى في قلبه فلا يضره ما لقي من الدنيا ، ومن كان الفقر في قلبه فلا يغنيه ما أكثر له في الدنيا ، و إنما يضر نفسه شحها**) رواه ابن حبان وصححه الألباني .

وفي حديث الترمذي عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (**من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه ، وجمع له شمله ، و أتته الدنيا وهي راغمة ، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه ، وفرق عليه شمله ، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له**) صححه الألباني.

* * *　　　* * * *　　　* * *

44/ حقيقة العبادة في الإسلام - أحمد عماري – شبكة الألوكة - بتصرف .

45- رواه الترمذي و ابن ماجة والإمام أحمد في مسنده وغيرهم ، وحسنه الترمذي وصححه الألباني .

46- ركن المقالات – إسلام ويب – بتصرف يسير.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله : إذا أصبح العبد وأمسى وليس همه إلا الله وحده تحمّل الله عنه سبحانه حوائجه كلها ، وحمَل عنه كلّ ما أهمّه ، وفرّغ قلبه لمحبته ، ولسانه لذكره ، وجوارحه لطاعته ، وإن أصبح وأمسى والدنيا همه حمّله الله همومها وغمومها وأنكادها ووكَلَه إلى نفسه .

وكم من غني عنده ما يكفيه وأهله عشرات السنين ، ومع ذلك لا يزال حريصاً على الدنيا ، يخاطر بدينه وصحته ، ويضحي بوقته وجهده ، وكم من فقير يرى أنه أغنى الناس ، مع أنه قد لا يجد قوت غده ، فالقضية إذاً متعلقة بالقلوب وليست بما في الأيدي .

ومن الأدلة على ذلك قوله تعالى :(**وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ**) (طه - 132) .

قوله تعالى : (**وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا**) أى : وأمر - أيها الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم - أهل بيتك بالمداومة على إقامة الصلاة بخشوع وإخلاص واطمئنان ، واصطبر على تكاليفها ومشاقها ، وعلى إقامتها كاملة غير منقوصة ، وعلى تحقيق آثارها الطيبة فى نفسك ويدخل في الآية عمومه جميع أمته .

وقد ساق بعض المفسرين عن تفسيره لهذه الآية أحاديث منها ما أخرجه البيهقى عن عبد الله بن سلام قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا نزلت بأهله شدة أو ضيق أمرهم بالصلاة ، وتلا هذه الآية : (**وَأْمُرْ أَهْلَكَ بالصلاة**) .

وأخرج مالك والبيهقى عن أسلم رحمه الله قال : كان عمر بن الخطاب يصلى من الليل ما شاء الله - تعالى - أن يصلى حتى إذا كان آخر الليل أيقظ أهله للصلاة ويقول لهم : الصلاة ، الصلاة ويتلو هذه الآية .

قوله تعالى (**لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ**) أي: رزقك علينا قد تكفلنا به، كما تكفلنا بأرزاق الخلائق كلهم، فكيف بمن قام بأمرنا، واشتغل بذكرنا؟! ورزق الله عام للمتقي وغيره، فينبغي الاهتمام بما يجلب السعادة الأبدية، وهو: التقوى، ولهذا قال (**وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ**) المحمودة في الدنيا والآخرة لأهل التقوى .

ففي الآية تشجيع وتحريض للمؤمنين على إقامة الصلاة ، ودفع لما يتوهّمه البعض من أن المداومة على إقامة الصلاة قد تشغل الإنسان عن السعى فى طلب المعاش [47] .

47- تفسير القرطبي والسعدي والتفسير الوسيط .

ومما يدل على الرزق والبركة فيه قصة أصحاب الجنة الذين بارك الله لهم في جنتهم في حياة والدهم بطاعته ورحمته بالفقراء، حتى إذا مات وورثوا الأرض من بعده عزموا على حرمان الفقراء، فأرسل الله على جنتهم صاعقة فجعلتها كالصريم محترقة سوداء كالليل البهيم، قال تعالى: **(إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ)** سورة القلم (17) .

* * *   *   *   *   *   * * *

ثانياً : العبادات في الإسلام سبب في طمأنينة القلب وراحته ورضاه :

قال تعالى: **(الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)** سورة الرعد (28) ،

حقيق بقلوب الذاكرين وحري بها أن لا تطمئن لشيء سوى ذكره ؛ فإنه لا شيء ألذ للقلوب ولا أشهى ولا أحلى من محبة خالقها ، والأنس به ومعرفته ، وعلى قدر معرفتها بالله ومحبتها له يكون ذكرها له ، هذا على القول بأن **ذكر الله** ذكر العبد لربه ، من تسبيح وتهليل وتكبير وغير ذلك .

وقيل : إن المراد **بذكر الله** كتابه الذي أنزله ذكرى للمؤمنين ؛ فعلى هذا معنى طمأنينة القلب بذكر الله أنها حين تعرف معاني القرآن وأحكامه تطمئن لها ؛ فإنها تدل على الحق المبين المؤيد بالأدلة والبراهين ، وبذلك تطمئن القلوب ؛ فإنها لا تطمئن إلا باليقين والعلم ، وذلك في كتاب الله ، مضمون على أتم الوجوه وأكملها ، وأما ما سواه من الكتب التي لا ترجع إليه ؛ فلا تطمئن بها ، بل لا تزال قلقة من تعارض الأدلة وتضاد الأحكام ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ، وهذا إنما يعرفه من خبر كتاب الله وتدبره ، وتدبر غيره من أنواع العلوم ، فإنه يجد بينها وبينه فرقا عظيما[48] .

ثالثاً : العبادات في الإسلام طريق إلى سلامة القلب وطهارته ونقاوته :

وذلك لما في هذه العبادات من آثار باطنة ؛ لأنها إن لم تؤثر في قلب المسلم تطهيرا له من أمراض الكبر والحقد والحسد والعجب ونحوها فهي بلا شك لم يؤدها صاحبها كما هي مطلوبة منه. (كما سيأتي بيانه في المطلب التالي) .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى[49]: والقلب السليم الذي ينجو من عذاب الله هو القلب الذي قد قد سلم لربه وسلم لأمره ولم تبق فيه منازعة لأمره ولا معارضة لخبره فهو سليم مما سوى الله وأمره لا يريد الا الله ولا يفعل إلا ما أمره الله فالله وحده غايته وامره وشرعه وسيلته وطريقته لا

48- تفسير السعدي .

49/ مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة – لابن القيم – (41/1) باختصار(موقع المكتبة الشاملة الحديثة) .

تعترضه شبهة تحول بينه وبين تصديق خبره لكن لا تمر عليه إلا وهي مجتازة تعلم انه لا قرار لها فيه ولا شهوة تحول بينه وبين متابعة رضاه ومتى كان القلب كذلك فهو سليم من الشرك وسليم من البدع وسليم من الغي وسليم من الباطل وحقيقته انه القلب الذي قد سلَّم لعبودية ربه حياء وخوفا وطمعا ورجاء ففنى بحبه عن حب ما سواه وبخوفه عن خوف ما سواه وبرجائه عن رجاء ما سواه ، وسلم في جميع احواله واقواله واعماله واذواقه ظاهرا وباطنا من مشاقة رسوله صلى الله عليه وسلم .

*** * * * * ***

رابعاً : العبادات في الإسلام طريق إلى وحدة الأمة : يقول الله تعالى (**إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ**) سورة الأنبياء (92) .

تفيد الآية الكريمة والكثير مما يدل على معناها في القرآن أن وحدة الأمة الاسلامية هي الأصل الذي لا ينبغي للمسلمين أن يتخلوا عنه ، وعليهم أن يتحلوا به لكي يكونوا أمة قوية متماسكة مرهوبة الجانب من الأعداء والمتربصين بها شراً، وهذه الوحدة هي الحصن المنيع لكل بلاد المسلمين لأنها تحمي المسلمين وتجعلهم يعيشون حياة مليئة بالعزة والكرامة والاستقلال والإرادة المتحررة من كل الضغوطات الداخلية أو الخارجية، وتجمعهم كلمة لا إله إلا الله، محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم كما تجمعهم سائر أركان الإسلام وإيمانهم بالقرآن ففي أداء العبادات مظاهر عديدة تدلل على وحدة الأمة الإسلامية [50].

وذلك بالحث على أداء العبادات **جماعة**، ورفع الله شأن القيام بها جماعة، **ففي الصلاة**: شرعت الصلاة جماعة، **وفي الصيام**: يصومون شهرًا واحدًا، وهو رمضان، في وقت واحد، ويفطرون في

50- قال القاسمي رحمه الله في تفسيره : قلنا: إن الأمة هنا بمعنى الملة، وهو الدين المجتمع عليه، كما في قوله: (إنا وجدنا آباءنا على أمة) أي: على دين يجتمع عليه. والأمة بهذا المعنى هو ما رجحه كثير من المفسرين في هذه الآية، وفي آية: (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم وإن هذه أمتكم أمة واحدة و أنا ربكم فاتقون) وتطلق (الأمة) بمعنى الجماعة. كما هي في قوله تعالى: (وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) أي: جماعة. وكما في قوله: ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ولا تكون بمعنى الجماعة مطلقا، و إنما هي بمعنى الجماعة الذين تربطهم رابطة اجتماع، يعتبرون بها واحدا، وتسوغ أن يطلق عليهم اسم واحد كاسم الأمة. وتطلق الأمة بمعنى السنين كما في قوله تعالى: ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة وفي قوله: وادكر بعد أمة وبمعنى الإمام الذي يقتدى به،كما في قوله: إن إبراهيم كان أمة قانتا لله وبمعنى إحدى الأمم المعروفة كما في قوله: كنتم خير أمة أخرجت للناس وهذا المعنى الأخير لا يخرج عن معنى الجماعة، على ما ذكرنا. و إنما خصصه العرف تخصيصا. كذا حققه العلامة محمد عبده رحمه الله في تفسير آية: كان الناس أمة واحدة .

وقت واحد، **وفي الزكاة**: يقف الأغنياء بجانب الفقراء، فيحصل تكافل وتعاون، **وفي الحج**: في وقت واحد، ومناسك واحدة، وزي واحد.

فالمسلمون قادرون بإذن الله على التغلب على كل عوامل الفرقة والشقاق في جسد أمتهم، وقادرون بوحدتهم على رفع كل أيادي المستكبرين والطواغيت عن قرار الأمة ومصيرها، لكن ذلك يحتاج إلى جهود المخلصين والأوفياء والعلماء الذين يجب عليهم أن يتصدوا لأداء هذه المهمة الجليلة والعظيمة بلحاظ نتائجها الكبيرة والباهرة على مستوى الأمة جمعاء لنشر الوعي الإيجابي عن أبعاد وحدة الأمة والمنافع والمصالح الهائلة التي تترتب على ذلك.

* * *   *   *   *   *   * * *

خامساً : العبادة وقاية للنفس والأسرة والمجتمع من كل الآفات والمهلكات :

قال تعالى : ﴿**يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ [البقرة: 21]. لعلكم تتقون الله بامتثال أمره واجتناب نهيه، وتقون أنفسكم مما يضرها ويهلكها في الدنيا، ومما لا تطيق تحمّله من العذاب المهين في الدار الآخرة.

فليعلم إذاً أن تزكية الأنفس وإصلاحها من مقاصد العبادات. فالنفوس المزكاة منابع للخير ومحاسن الآداب.

ولا يخفى أن للعبادة روحاً ولباً وعلاقة تواصل بين العبد وربه سبحانه، فإذا اقتصرت العبادة على الحركات، وتخلف عنها لبها وجوهرها من الخشوع والخضوع لله والذل والانكسار بين يديه، كان العبد مؤدياً لصورة العبادة لا لحقيقتها، فشرود القلب وغفلته في أدائه للعبادة من أعظم الآفات التي تؤدي لعدم حصول مقاصدها فضلا عن عدم قبولها .

* * *   *   *   *   *   * * *

سادساً : العبادات في الإسلام طريق إلى مغفرة الذنوب ومحو السيئات، ورفع الدرجات : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم كَانَ يَقُولُ: (**الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ، إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ**). رواه مسلم.

ويقول ربنا سبحانه: ﴿**وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى * جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى**﴾ [طه: 75، 76].

سابعاً : العبادة في الإسلام طريق الفوزوالفلاح، وسبيل النجاة من عذاب الله؛ قال تعالى: ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾ [المؤمنون: 1 - 11].

وقال سبحانه: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ**﴾ [فصلت: 30].

فكل ما في العبادة يعود بالنفع على العباد في دنياهم وفي أخراهم، ويهدف إلى جلب المصلحة للعباد، ودرء المفسدة عنهم.

والمشقة في العبادة غير مقصودة، والتعب فيها ليس غاية، والحرج فيها مرفوع... وقد قال تعالى: ﴿**مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾ [المائدة: 6].

وقال عز وجل: ﴿**مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا**﴾ [النساء: 147]. فهنيئاً لمن شكر الله فعبدَه ووَحّدَه واتقاه، وويل لمن جحدَ وكفر وضل واتبع هواه.. حين يقف العباد بين يدي الله، فينظر كل امرئ ما قدمت يداه.

* * *　　* * * *　　* * *

المطلب الثاني

مقاصد العبادات الأربعة في ضوء الكتاب والسنة تفصيلاً

المحور الأول : مقاصد الصلاة في ضوء الكتاب والسنة .

المحور الثاني : مقاصد الزكاة في ضوء الكتاب والسنة .

المحور الثالث : مقاصد الصيام في ضوء الكتاب والسنة .

المحور الرابع : مقاصد الحج في ضوء الكتاب والسنة .

ومن تأمل في أمهات العبادات في الإسلام وجدها تهدف إلى تزكية النفس وتحليتها بكل فضيلة، وتطهيرها وتخليتها من كل رذيلة ، وإليك بيان ذلك باختصار في أربعة محاور :

المحور الأول

مقاصد الصلاة في ضوء الكتاب والسنة

ومقاصد الصلاة أظهر الله سبحانه بعضها، واستنبط العلماء جزءًا منها، ولا زال الكثير من مقاصدها لم يظهر حتى الآن، وقد ألف الحكيم الترمذي في القرن الثالث كتابًا سماه: مقاصد الصلاة وأسرارها، ومن أهم مقاصد الصلاة:

1- تحقيق عبودية ذكر الله تعالى : المقصود الأعظم للصلاة هو ذكر الله تعالى والتقرب إليه وتجديد العهد به ، قال تعالى :﴿**وَ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي**﴾ [طه: 14].

قال العلامة ابن عاشور في تفسير هذه الآية : وَاللَّامُ فِي لِذِكْرِي لِلتَّعْلِيلِ، أَيْ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِأَجْلِ أَنْ تَذْكُرَنِي، لِأَنَّ الصَّلَاةَ تُذَكِّرُ الْعَبْدَ بِخَالِقِهِ. إِذْ يَسْتَشْعِرُ أَنَّهُ وَاقِفٌ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ لِمُنَاجَاتِهِ. فَفِي هَذَا الْكَلَامِ إِيمَاءٌ إِلَى حِكْمَةِ مَشْرُوعِيَّةِ الصَّلَاةِ .

لذلك اشتملت الصلاة من أعمال القلوب والألسن والجوارح فرضا وندبا ما لم يشتمل عليه غيرها؛ كل ذلك ليتفرغ المكلف للإقبال عليها ؛ لأن مقصودها تجديد العهد بالله ؛ ولذلك جعلت لها مواقيت متقاربة ؛ لئلا يبعد عهد العبد بذكر الله .

ويدخل في ذلك التذلل لله تعالى ما في الصلاة من قيام وركوع، وسجود ودعاء، وهذا أسمى مراتب العبودية لله سبحانه ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَ افْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ [الحج: 77].

* * * * * * * * * *

2- النهي عن الفحشاء والمنكر وتهذيب الأخلاق :

الصلاح النفساني و النهي عن الفحشاء والمنكر وتهذيب الأخلاق مقصد من مقاصد الصلاة وثمرة من ثمراتها ، قال تعالى : وقال تعالى : ﴿**وَ أَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ**﴾ [العنكبوت: 45].

فالصلاة الحقيقية تترك أثرا في نفس صاحبها يجعله يتجنب الفحشاء والمنكر والأخلاق السيئة ، ويجعله يتحلى بمكارم الأخلاق ؛وذلك -كما يقول ابن عاشور- أَنَّ الصَّلَاةَ تَشْتَمِلُ عَلَى مُذَكِّرَاتٍ بِاللَّهِ

مِنْ أَقْوَالٍ وَأَفْعَالٍ مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تَكُونَ لِلْمُصَلِّي كَالْوَاعِظِ الْمُذَكِّرِ بِاللَّهِ تَعَالَى إِذْ يَنْهَى سَامِعَهُ عَنِ ارْتِكَابِ مَا لَا يُرْضِي اللَّهَ.

وَهَذَا كَمَا يُقَالُ: صَدِيقُكَ مِرْآةٌ تَرَى فِيهَا عُيُوبَكَ. فَفِي الصَّلَاةِ مِنَ الْأَقْوَالِ تَكْبِيرٌ لِلَّهِ وتحميده وتسبيحه والتوجيه إِلَيْهِ بِالدُّعَاءِ وَالِاسْتِغْفَارِ وَقِرَاءَةِ فَاتِحَةِ الْكِتَابِ الْمُشْتَمِلَةِ عَلَى التَّحْمِيدِ وَالثَّنَاءِ عَلَى اللَّهِ وَالِاعْتِرَافِ بِالْعُبُودِيَّةِ لَهُ وَطَلَبِ الْإِعَانَةِ وَالْهِدَايَةِ مِنْهُ وَاجْتِنَابِ مَا يُغْضِبُهُ وَمَا هُوَ ضَلَالٌ، وَكُلُّهَا تُذَكِّرُ بِالتَّعَرُّضِ إِلَى مَرْضَاةِ اللَّهِ وَالْإِقْلَاعِ عَنْ عِصْيَانِهِ وَمَا يُفْضِي إِلَى غَضَبِهِ فَذَلِكَ صَدٌّ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ.

وَفِي الصَّلَاةِ أَفْعَالٌ هِيَ خُضُوعٌ وَتَذَلُّلٌ لِلَّهِ تَعَالَى مِنْ قِيَامٍ وَرُكُوعٍ وَسُجُودٍ وَذَلِكَ يُذَكِّرُ بِلُزُومِ اجْتِلَابِ مَرْضَاتِهِ وَالتَّبَاعُدِ عَنْ سَخَطِهِ. وَكُلُّ ذَلِكَ مِمَّا يَصُدُّ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ.

وَفِي الصَّلَاةِ أَعْمَالٌ قَلْبِيَّةٌ مِنْ نِيَّةٍ وَاسْتِعْدَادٍ لِلْوُقُوفِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَذَلِكَ يُذَكِّرُ بِأَنَّ الْمَعْبُودَ جَدِيرٌ بِأَنْ تُمْتَثَلَ أَوَامِرُهُ وَتُجْتَنَبَ نَوَاهِيهِ.

فَكَانَتِ الصَّلَاةُ بِمَجْمُوعِهَا كَالْوَاعِظِ النَّاهِي عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، فَإِنَّ اللَّهَ قَالَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَمْ يَقِلْ تَصُدُّ وَتَحُولُ وَنَحْوُ ذَلِكَ مِمَّا يَقْتَضِي صَرْفَ الْمُصَلِّي عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ [51] .

* * *   * * * *   * * *

3- تهذيب السلوك والاتصاف بمكارم الأخلاق [52] :

اشتهر لدى الكثيرين أن أهم مقاصد الصلاة أنه تنهى عن الفحشاء والمنكر استنادا إلى قوله تعالى قال تعالى: ﴿**وَ أَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ**﴾ [العنكبوت: 45]. وقد سبق بيان ذلك .

ولكن إذا تأملنا في القرآن الكريم نجد أن الله تعالى قد بين لنا أن الصلاة هي السبب الرئيس في اكتساب مكارم الأخلاق ومحاسن الصفات وذلك في موضعين من كتاب الله تعالى :

---

51 مقاصد الصلاة .. د. حماد محمد إبراهيم منصور- شبكة الضياء - بتصرف .

52- فصلت الكلام في هذه القضية في كتابي المجلي عن روحانيات المصلي -الفصل الثالث : من مقاصد الصلاة وثمارها - المبحث الثاني : ثمرة الصلاة تحسين الأخلاق - بتصرف – (منشور في موقع صيد الفو ائد).

الأول : قوله تعالى في سورة المؤمنون : (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ) إلى قوله تعالى (الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) سورة المؤمنون (1-11) .

ووجه الدلالة - من الآيات - على كون الصلاة تثمر التخلق بمكارم الأخلاق اسم الوصول (الذين) المعطوف بالواو على قوله تعالى **(الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ)** فصار المعنى أن من خشع في صلاته فهو سوف يتصف بما ورد بعد ذلك من صفات **(وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ)** ... الخ ، وإن كان المتبادر إلى الذهن أن العطف على قوله تعالى **(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ)** فتكون هذه صفات للمؤمنين وليس للمصلين ، أقول نعم هذا محتمل ولكن هل يا ترى من فرط في صلاته يمكن أن يتصف ببقية صفات المؤمنين المذكورة بعد ذلك ... من هنا قلت الصلاة هي التي تثمر مكارم الأخلاق ، ويدل صحة ما قلنا ما ورد في **الموضع الثاني** في سورة المعارج في قوله تعالى (19-35) :

(إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ) إلى قوله تعالى : (أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ) .

فجاءت (الَّذِينَ) دون واو فتبين أن هؤلاء الموصوفون بهذه الصفات هم المصلون المذكورون في قوله تعالى (إِلَّا الْمُصَلِّينَ) ثم عطف عليها (الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ) .. الخ الصفات المذكورة .

* * *   *   *   *   *   * * *

وسأكتفي هنا بذكر صفتين فقط بحسب ما يتسع المجال :

الصفة الأولى : الإعراض عن اللغو : ودليلها قوله تعالى: {وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ}
والإعراض عن اللغو خصلة من خصال الإيمان، واللغو: ما لا فائدة فيه من الأقوال والأعمال.

فيدخل فيه اللهو والهزل وكل ما يخل بالمروءة وبآداب الإسلام.أى: أن صفات هؤلاء المؤمنين أنهم يتزهون أنفسهم عن الباطل والساقط من القول أو الفعل، ويعرضون عن ذلك في كل أوقاتهم لأنهم لحسن صلتهم بالله- تعالى- اشتغلوا بعظائم الأمور وجليلها: لا بحقيرها وسفسافها، وهم كما وصفهم الله- سبحانه- في آية أخرى: **(وَإِذا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَإِذا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً).**

وقد ربط بعض العلماء بين الخشوع في الصلاة وبين الإعراض عن اللغو فقال : مَنْ كثر لغوه قل خشوعه لأن اللغو له تأثير في القلب ، والعكس بالعكس أي من قل لغوه زاد خشوعه .

الصفة الثانية: تزكية النفس : ودليلها قوله تعالى: {وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ}.. والزكاة فريضة مهمة من فرائض الإسلام.ويرى بعض العلماء : أن المراد بالزكاة هنا : زكاة النفس. أى: تطهيرها من الآثام والمعاصي. فهي كقوله- تعالى-(**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها وَقَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها**) أى: أن من صفات هؤلاء المؤمنين، أنهم يفعلون ما يطهر نفوسهم ويزكيها.

قال ابن كثير رحمه الله: " ويحتمل أن يكون كلا الأمرين مرادا، وهو زكاة النفوس وزكاة الأموال، فإنه من جملة زكاة النفوس، والمؤمن الكامل هو الذي يتعاطى هذا وهذا " .

4- حصول الألفة بين المصلين : ولذلك شرعت المساجد ليحصل التعاهد باللقاء في أوقات الصلاة بين الجيران. كما شرعت في المحالِّ التجارية وفي أماكن العمل كالوزارات والشركات والمصانع والمشافي وغيرها ؛ ليحصل التعاهد باللقاء بين الموظفين .

5- الصلاة سبب في تخفيف الأحزان أو ذهابها بالكلية :

يقول العلامة ابن عاشور رحمه الله تعالى : عَلَى أَنَّ فِي الصَّلَاةِ سرا إلاهيَا لَعَلَّه ناشئ عَنْ تَجَلِّي الرِّضْوَانِ الرَّبَّانِيِّ عَلَى الْمُصَلِّي فَلِذَلِكَ نَجِدُ لِلصَّلَاةِ سِرًّا عَظِيمًا فِي تَجْلِيَةِ الْأَحْزَانِ وَكَشْفِ غَمِّ النَّفْسِ.

ويقول الإمام ابن راشد رحمه الله تعالى : "فالعبادات هي أدوية لأمراض القلوب، وإن الله تعالى أنزلها رحمة للعباد وصقالًا لمرآة قلوبهم؛ ليتوصلوا بذلك إلى محل أنسه، وسكنهم في حظيرة قدسه".

ولذلك أمرنا الله بالاستعانة بها في الشدائد، فقال تعالى : (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**) [البقرة 153].

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حزبه قال: (**أرِحْنا بالصلاة يا بلال**). رواه وأبو داود وعن وأنس بن مالك رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (**حُبِّبَ إليَّ النساء والطيب، وجعلت قرة عيني في الصلاة**) [53].

* * *   * * * *   * * *

53- الطبراني (20/ 420)، والحاكم (2/ 174) على شرط مسلم.

المحور الثاني

مقاصد الزكاة في ضوء الكتاب والسنة

ويندرج تحت الزكاة كل صدقة أو تبرع أو نفقة واجبة أو مندوبة على الأقارب والأرحام أو إغاثة ملهوف ونحوها . ومقاصد الزكاة كثيرة، من أهمها:

1- تحقيق العدالة الاجتماعية والتآلف بين المسلمين : لقوله صلى الله عليه وسلم : (**تؤخذ من أغنيائهم فترد إلى فقرائهم**) رواه البخاري ومسلم . وقد حث النبي صلى الله عليه وسلم على التكافل الاجتماعي والمالي حيث يقول: (**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**) رواه مسلم وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم : (**ليس المؤمن الذي يشبع وجاره جائع إلى جنبه**). رواه الحاكم في المستدرك وصححه الذهبي في التلخيص، والألباني في صحيح الأدب المفرد.

ففي الزكاة تحقيق للتآلف والمحبة والتواصل والأخوة بين المؤمنين، قال الله تعالى: (**إِنَّمَا اَلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**)[الحجرات : 10].

وهي علاج عملي لكثير من الآفات الاجتماعية كالبطالة والتسول عن طريق استثمار أموالها في تشغيل القادرين على العمل حتى يصبحوا بدورهم منتجين ومزكين كما أنها من أعظم ما يحقق التواصل والتآلف والمحبة والتآخي بين أفراد المجتمع.

وللزكاة دور في تقليل الفوارق الطبقية؛ بحيث يحدث في كل عام إعادة توزيع لجانب مهم من الثروة تستفيد منه فئات واسعة من المجتمع.[54]

يقول ابن عاشور رحمه الله : **"عقود التبرعات قائمة على أساس المواساة بين أفراد الأمة لمعنى الأخوة؛ فهي مصلحة جليلة، و أثر خلق إسلامي جميل، فيها حصلت مساعفة المعوزين، وإغناء المقترين، و إقامة الجمِّ من مصالح المسلمين .**

* * *   *   *   *   *   * * *

54- مقال : مقاصد الزكاة وفضائلها - د أحمد الإدريسي – موقع منار الإسلام – بتصرف .

2- تحقيق النماء الاقتصادي : النماء العائد على الشخص المنفق أو المتصدق أو المزكي، ونماء للفقير الذي أخذ الصدقة، فيعف نفسه وأهله؛ قال صلى الله عليه وسلم: (ما نقص مال من صدقة) أحمد (4/ 231) الترمذي (4/ 562)، وقال: حسن صحيح .

لأنها - الزّكاة - تحرر آخذها من الحاجة، سواء كانت مادّية كالمأكل والملبس والمسكن أو كانت حاجةً نفسية حَيوية كالزواج أو حاجة مَعنوية فكرية ككتب العلم، فإذا صرفت الزكاة في هذه الحاجات وغيرها، يَستطيع الفَقير العاجز عن تحصيل حاجاته، أن يشارِك في واجباته الاجتماعية والاقتصادية، فالزكاة نماء لشخصية الفقير حيث يشعر أنه ليس ضائعا في المجتمع ولا متروكا لفقره وعوزه ويستمتع بكرامته عندما يأخذ حقه.

وربما تكون الزكاة منطلقا ليكون من ذوي اليد العليا يعطي بدوره الزكاة وذلك إذا أعطي له من الزكاة ما يقيم به مشروعا أو زود بأدوات العمل. [55]

* * * * * * * * * *

3- تطهر النفس من الشح والبخل ومن الحقد والغل وتزرع في النفوس المودة والمحبة والتراحم والتعاطف ، قال تعالى :﴿ **خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ [التوبة: 103].

يقول الأستاذ عبد السلام ياسين رحمه الله - في شأن هذه المقاصد والفضائل - : (الصدقة المأخوذة من أغنياء الأمة، المردودة على فقرائها، وسيلة لتزكية النفوس والأموال وتطهيرها وتطييبها. تزكية وتطييب وتطهير للنفس التي صدقت في فعلها حيث يقيها البذل في سبيل الله شحها. وتزكية وتطييب وتطهير للنفوس التي رد عليها نصيب من المال تسد به الحاجة فتختفي أسباب الحقد الطبقي. قال الله تعالى لعبده النبي صلى الله عليه وسلم وعباده ولاة الأمر من بعده: **(وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ [التوبة: 103] فكان صلى الله عليه وسلم يدعو بالنماء والزكاء والخير والبركة لمؤتي الزكاة فتزكو الأموال ويكثر الخير والبركة) [56].

* * * * * * * * * *

55- السابق .

56- في الاقتصاد؛ البواعث الإيمانية والضوابط الشرعية - االأستاذ عبد السلام ياسين – ص(52) (نقلا عن مقال مقاصد الزكاة وفضائلها - د أحمد الإدريسي – موقع منار الإسلام) .

المحور الثالث

مقاصد الصيام في ضوء الكتاب والسنة

وهي كثيرة ومتنوعة، تعرف عليها العلماء من خلال فهم واستقراء النصوص والأحكام الخاصة بالصيام، ومن أهم هذه المقاصد:

1- تحصيل التقوى لتزكية النفس : وهذا المقصد يقف عليه كل تالٍ للقرآن في آية الصوم والله تعالى يقول: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)** [البقرة:183].

والنفس إذا شبعت طمحت إلى المعاصي، وتشوَّفت إلى المخالفات، وإذا جاعت وظمئت تشوّفت إلى الطاعات، وتذكرت ربها فتطلّعت إلى المناجاة، ولذلك كان بعض السلف يقدّم الصوم على سائر العبادات فسئل عن ذلك فقال: "لأنْ يطّلع الله على نفسي وهي تنازعني إلى الطعام والشراب أحبّ إليّ من أنْ يطلع عليها وهي تنازعني إلى معصيته إذا شبعتْ" [57].

وفي الصيام خروج عن مألوف النفس إلى مراد الرب، وتحرر من مطالب النفس إلى مطالب الشرع، وتقديم لمحاب الله على محاب الذات، وفي ذلك كله ترويض للنفس على تشوّف الطاعة ومباينة المخالفة، وتدريب للقلب على الإخلاص لله والتجرد من العلائق الحاجبة عنه جل وعلا، وذلك من تمام التزكية[58].

* * *   * * * *   * * *

2- الصوم يربي الصائم على أداء الأمانة : لأنَّ العبد المؤمن يشعر بصيامه أنَّه عبد لله حقَّاً، فإنَّ كمال الحرية في تمام العبودية لله ، فلا يأكل الإنسان إلا إذا ابتدأ الوقت الذي بيَّنه الله أنَّه وقت للإفطار ، ولا يصوم إلاَّ إذا ابتدأ وقت الصيام ، فهي عبودية كاملة لله ، وأمانة يؤدِّيها العبد لربِّه ، ولهذا يقول المصطفى . صلَّى الله عليه وسلَّم ـ:(**إنَّ الصوم أمانة فليحفظ أحدكم أمانته**) أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق بسند حسن.

والحقيقة أنَّ هناك بعض المسلمين يفرِّط في حفظ هذه الأمانة التي استرعاه الله إيَّاها، (فقد حصل من الإنكليز أكثر من مرَّة امتحان العمَّال المسلمين بين الصيام وبين خيانة الله فيه ، وذلك بإغرائهم

57- مقاصد الصوم، العزبن عبد السلام - ص (17).

58- مقاصد الصوم – للأستاذ الدكتورعبد الله الزبيرعبد الرحمن - موقع المسلم .

بمضاعفة الأجور للمفطرين حتَّى إذا انتهى الشهر عكسوا الأمر ، فضاعفوا أجور الصائمين ، ونقصوا المفطرين أو طردوهم ، مع التصريح لهم أنَّهم خونة خانوا دينهم) 59.

* * *   *   *   *   *   * * *

3- الصوم سبب في تزكية النفس :

من مقاصد الصيام الجليلة أنَّ فيه تزكية للنفس وتنقية لها من الأخلاق الرذيلة ؛ خاصَّة أنَّه شرع في شهر من خصوصيَّاته تصفيد الشياطين ، فعن أبي هريرة .رضي الله عنه . أنَّ رسول الله .صلَّى الله عليه وسلَّم . قال:(**إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنَّة ، وغلقت أبواب النار ، وصفدت الشياطين**) أخرجه البخاري ومسلم.

ولهذا يضيِّق الصوم مجاري الشيطان في بدن الإنسان .وكما هو معلوم .فإنَّ الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ، إلاَّ أنَّه بالصيام يضعف نفوذه ، فإذا أكل المرء أو شرب انبسطت نفسه للشهوات ، وضعفت إرادتها ، وقلَّت رغبتها في العبادات، وفي الحديث:(**إنَّ الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم**) زاد بعضهم:(**فضيِّقوا مجاريه بالصوم**) والزيادة هذه باطلة لا أصل لها، ولكن العلماء قالوا: إنَّ التضييق عليه يكون بتضييق مجاريه بالجوع ومنه الصوم ، فالجوع يكسر الشهوة ، ومجرى الشهوات الشيطان ، ولهذا كان .عليه الصلاة والسلام .يوصي الشباب .والذين تموج بهم عواصف الشهوات ، وتكون غرائزهم مهيأة لاقترافها أكثر من غيرهم .بالزواج ؛ فإن لم يستطيعوا إليه سبيلاً ، فإنَّ أنجع طريق لهم مقيِّدة لشهواتهم وكسر حدَّتها ؛ الصوم ؛ فيقول .عليه السلام :(**يا معشر الشباب : من استطاع منكم الباءة فليتزوج ؛ فإنَّه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنَّه له وجاء**) أخرجه البخاري ومسلم.

يقول ابن القيِّم .رحمه الله: (وللصوم تأثير عجيب في حفظ الجوارح الظاهرة ، والقوى الباطنة ، وحميتها عن التخليط الجالب لها المواد الفاسدة التي إذا استولت عليها أفسدتها ، واستفراغ المواد الرديئة المانعة لها من صحَّتها ؛ فالصوم يحفظ على القلب والجوارح صحتها ، ويعيد إليها ما استلبته منها أيدي الشهوات) [60].

ومن جميل ما اطَّلعت عليه من أبحاث أحد علماء الإعجاز العلمي أنَّه ذكر في سبب ترغيب رسول الله .صلَّى الله عليه وسلَّم .للمسلمين أن يصوموا الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر من كل

59- كتاب الصوم مدرسة تربِّي الروح - للشيخ عبدالرحمن الدوسري – ص (36) (نقلا عن مقاصد الصيام خباب بن مروان الحمد - موقع صيد الفوائد).

60- زاد المعاد – لابن القيم -(29/2) .

شهر هجري ،أنَّ البحر يمد في هذه الأيام لضوء القمر بقدرة الله .عزَّ وجل .ويصيب البحر الجزر في الليالي الظلماء ، وكذلك الدم فإنَّه يزيد ضخه في هذه الأيام فأمر .عليه الصلاة والسلام .بالصيام ؛ لأنَّ الشيطان يزيد من عتوِّه ، وكلام هذا العالم جيد ولا يعارض النصوص ؛ ولله الحمد والمنة[61].

* * *   *   *   *   *   * * *

61- مقاصد الصيام خباب بن مروان الحمد - موقع صيد الفوائد .

المحور الرابع

مقاصد الحج في ضوء الكتاب والسنة

ومقاصد الحج كثيرة، ونوَّه الله عليها فقال: (لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ)[الحج: 28]، وسننقل أهم تلك المقاصد [62]:

1- إقامة ذكر الله : إن من أعظم مقاصد الحج، وأهمها، إقامة ذكر الله. ويلحظ القارئ لآيات المناسك تكرار الأمر بذكر الله عقيب كل منسك، قال تعالى : (فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ * ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا) (البقرة: 198- 200).

وقال تعالى : (وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ) (البقرة: 203).

وقال تعالى : (وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ) (الحج: 28).

وقال تعالى : (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ) (الحج: 34).

وقال تعالى : (كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ) (الحج: 37).

وقال صلى الله عليه وسلم : (إنما جُعل الطواف بالبيت، وبين الصفا والمروة، ورمي الجمار، لإقامة ذكر الله في الأرض) رواه الترمذي، وقال صلى الله عليه وسلم : (أفضل الحج : العجُّ والثجُّ) .

وقال له جبريل - عليه السلام - : (كن عجَّاجاً ثجاجاً) رواه أحمد.

والعجُّ : رفع الصوت بالتلبية، **والثجُّ** : إهراق دم الهَدْي. فينبغي لمن تلبَّس بهذه المناسك أن يستشعر هذا المعنى الجليل، وأن يلهج لسانه بذكر الله، وتكبيره، واستغفاره، ودعائه، كما أمر؛ فإن الله يحب أن يُذكر اسمُه. وكثير من الناس ينهمك في أداء المناسك ببدنه، وقلبه غافل، ولسانه عاطل.

* * *   * * * *   * * *

62- مقاصد الحج - د. أحمد بن عبدالرحمن بن عثمان القاضي – مجلة البيان العدد : 231 ذو القعدة 1427 - ديسمبر 2006 – بتصرف ، وخاتمة رسالة روحانيات حاج من تأليفي (موقع صيد الفوائد) .

2- تعظيم شعائر الله وحرماته : قال تعالى في سياق آيات الحج : (**ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ**) (الحج : 30)، ثم قال تعالى : (**ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ**) (الحج : 32).

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي - رحمه الله - : " حرمات الله : كل ما له حرمةٌ، وأمر باحترامه من عبادةٍ أو غيرها؛ كالمناسك كلها، وكالحرم والإحرام، وكالهدايا، وكالعبادات التي أمر الله العباد بالقيام بها؛ فتعظيمها إجلالاً بالقلب، ومحبتها، وتكميل العبودية فيها، غير متهاون ولا متكاسل ولا متثاقل ".

ثم قال : (**المراد بالشعائر** : أعلام الدين الظاهرة، ومنها : المناسك كلها؛ كما قال الله تعالى : (**إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ**) (البقرة : 158ومنها : الهدايا؛ فتعظيمها باستحسانها، واستسمانها، وأن تكون مكمَّلة من كل وجه. فتعظيم شعائر الله صادر من تقوى القلوب؛ فالمعظم لها يبرهن على تقواه، وصحة إيمانه؛ لأن تعظيمها تابع لتعظيم الله وإجلاله).

إن هذا الحس الإيماني المرهف، الذي يستقرئ المعاني من وراء الصور والأعيان في مناسك الحج وشعائره، ينبغي أن يستصحبه المؤمن في سائر شعائر الله الزمانية والمكانية؛ فيعظم ما عظم الله، ويهوّن ما هوّن الله، ويقدِّم ما قدم الله، ويؤخر ما أخر الله، وتستقيم مشاعره مع شعائر الله، ويكون هواه تبعاً لما جاء به نبيه صلى الله عليه وسلم .

* * *   *   *   *   *   * * *

3- ابتغاء فضل الله بالتجارات : عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : كانت عكاظ، و مَجَنَّة، و ذو المجاز، أسواق الجاهلية، فتأثموا أن يتَّجِروا في المواسم، فنزلت : (**لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ**) (البقرة : 198) رواه البخاري.

وعن أبي صالح، مولى عمر رضي الله عنهما قال : قلت : يا أمير المؤمنين ! كنتم تَتَّجِرون في الحج ؟ قال : وهل كانت معايشهم إلا في الحج ؟ إن موسم الحج فرصة لالتقاء مختلف الشعوب الإسلامية لتحقيق منافع مشتركة، ومصالح متبادلة، ومنها المنافع التجارية، والمصالح الاقتصادية، دون أن يغض ذلك من قدر النُّسُك؛ فقد رفع الله الجُناح عن الأمة في مزاولة هذه المناشط الحيوية التي تعود عليها بالقوة والخير.

ولو أحسن المسلمون اليوم استغلال هذا الموسم من هذا الجانب، لأمكن أن يؤسس لما **يسمى بالسوق الإسلامية** المشتركة من خلال عرض منتجاتهم، وإبرام العقود والاتفاقيات التجارية، ويحققوا فيما بينهم الاكتفاء الذاتي، ويستغنوا، أو يكادوا، عن الابتزاز العالمي المذل.

* * *　　* * * *　　* * *

4- اكتساب صفة التقوى : جميع شرائع الدين تهدف إلى تحقيق التقوى؛ بامتثال أوامر الله، واجتناب نواهيه. وآيات الحج، بصفة خاصة، مختتمة بالأمر بتقوى الله.

قال تعالى : (**وَ أَتِمُّوا الحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الهَدْيِ وَلاَ تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ فِي الحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي المَسْجِدِ الحَرَامِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ العِقَابِ**) (البقرة : 196).

وقال تعالى : (**الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَ اتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ**) (البقرة : 197).

وقال تعالى : (**وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ**) (البقرة : 203).وقال تعالى : (**لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ**) (الحج : 37).

فهي تخاطب في الناسك خبيئة قلبه، وتستثير ورعه، ألاَّ يرتكب محظوراً، ولا يفرط في هَدْيٍ، أو فديةٍ، أو كفارةٍ، وألاّ يقع في رفثٍ، أو فسوقٍ، أو جدالٍ، أو إثمٍ في الحج. وإلى جانب ذلك تشعره أن جميع قُرُباته، مهما دقت، معلومة، محفوظة، مشكورة قال تعالى : (**وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ**) (البقرة : 197).

إن هذه الرقابة الذاتية الصارمة التي يلتزم بها الحاج أياماً معدودات، يمكن أن تتحول إلى منهج، وسلوك مستديم، يرجع به الحاج الموفق إلى وطنه، وكأنما تنبه من غفلة، أو استيقظ من رقاد.

* * *　　* * * *　　* * *

5- اكتساب حسن الخلق : الحج سفر، والسفر قطعة من عذاب. وفي الحج من بُعد الشُّقة، وزيادة الكلفة، وحصول الازدحام، ما يتطلب مستوىً خلقياً رفيعاً، من الصبر والاحتمال، تدفع الضجر،

وأريحية بالغة، تتسامى عن الأثرة، وتحمل على الإيثار، والصفح، ومجاهدةً وغالبةً للنفس الأمارة، تهزم الشهوات وحظوظ النفس. قال تعالى : **(فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الحَجِّ)** (البقرة: 197).

قال عطاء رحمه الله : الجدال : أن تجادل صاحبك حتى تغضبه و يغضبك .

ومن أجمل الأخلاق الاجتماعية : الرفق، وقد دفع النبي - صلى الله عليه وسلم - يوم عرفة، فسمع وراءه زجراً شديداً، وضرباً للإبل، فأشار بسوطه إليهم، وقال : **(أيها الناس ! عليكم بالسكينة؛ فإن البِرَّ ليس بالإيضاع)** رواه البخاري.

ومن الأخلاق الكريمة : التواضع، وقد أردف النبي - صلى الله عليه وسلم - الفضل بن عباس - رضي الله عنهما - لما دفع من المزدلفة، وشرب زمزم من دلو يشرب منه سائر الناس. رواهما مسلم.

ومن مكارم الأخلاق حُسن معاشرة الزوجة؛ فحين حاضت عائشة - رضي الله عنها - ودخل عليها فوجدها تبكي، سلاَّها، وعزَّاها، قائلاً : **(إن هذا أمركتبه الله على بنات آدم)** ، وحين ألحَّت أن تأتي بعمرة بعد الحج، قال : **(اذهب بها يا عبد الرحمن فأعمرها من التنعيم)**. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم **(رجلاً سهلاً، إذا هويت الشيء تابعها عليه)** رواهما مسلم.

إن هذه الرحلة الشاقة، والآداب الصارمة، يمكن أن تؤسس لقيم خلقية ثابتة، يلتزمها الحاج بعد رجوعه، ويتحلى بها في رحلة العمر كله، بعد أن لمس آثارها، وجنى ثمارها، في تلك الأيام المعدودات.

* * *　　　* * * *　　　* * *

6/ الوصول إلى الوحدة الإسلامية تجسيداً و اقعياً وتطبيقاً عملياً :

الحج طريقة فذة لربط أمة الإسلام بمركز واحد، يديم لها رباط الدين، ويجدده فيها، ويوثق خيوطه، ويشدها بواسطته إلى ذكريات النور الذي انبثق في فجر رسالتها فهداها وأخرجها من الظلمات إلى النور.. وفي الحج تتجلى **"الوحدة الكاملة للأمة الإسلامية"** بكافة شعوبها وأعراقها وأقطارها: وحدة في المشاعر والشعائر، ووحدة في القول والفعل.. لا إقليمية ولا عنصرية ولا عصبية ولا طبقية، وإنما الجميع مسلمون، وبرب واحد يؤمنون، وببيت واحد يطوفون، ولكتاب واحد يقرأون، ولرسول واحد يتبعون، ولأعمال واحدة يؤدون، ولهدف واحد يبغون.

الحج فرصة لكل حاج كي "يجسد" الوحدة الإسلامية و "يستمتع" و "يعمق" شعوره بها - ولو لبضعة أيام أو أسابيع- .. فليوثقها بحسن التعارف والتآلف، وبالتعاون وحسن التعامل، وبتبادل الآراء والأخبار والمعلومات، مغلفاً ذلك كله بالمحبة والإخاء.

7- نشر السلام : إن الحج طريقة فذة لـ**تدريب** المسلم على السلام، وإشرابه **روح** السلام؛ فهو "**رحلة** سلام إلى أرض سلام في "**زمن** سلام"؛

رحلة سلام : إذ المسلم لا يبغي قتال أحد، ولا قتل أحد، وإنما يخرج قاصداً وجه الله وبيته.. محرماً يظل فترة إحرامه في سلام حقيقي مع من حوله وما حوله من إنسان وحيوان، وطير ونبات.. **فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج**، ولا قطع لنبات ولا شجر، ولا صيد لحيوان ولا ذبح له، بل ولا حلق لشعر نفسه، ولا قص لظفره.

إلى **أرض** سلام : إذ أرض الحج هي البلد الحرام: مكة، والبيت الحرام: الذي جعله الله مثابةً للناس وأمناً، و(**من دخله كان آمنا**" (آل عمران:97) إنها منطقة أمان فريد في نوعه؛ يشمل الطير في الجو، والصيد في البحر، والنبات في الأرض .. فهي "منطقة معقمة" لا يصاد صيدها، ولا يروع طيرها ولا حيوانها، ولا يقطع شجرها ولا عشبها.

في **زمن** سلام : إذ الحج - بالسفر إلى تأديته، والعودة منه، وأداء مناسكه- يقع في ثلاثة أشهر - هي: ذي القعدة وذي الحجة والمحرم- هي من الأشهر الحرم التي جعلها الله "**هدنة إجبارية**" تُغمد فيها السيوف، وتحقن الدماء، ويوقف القتال؛ حتى "**يتذوق**" الناس طعم السلام والهدوء والأمن والأمان؛ فيسعوا إليه مهرولين !.. فهل رأت الدنيا "تطبيقاً عمليا" للسلام و "تدريباً" عليه كهذا الذي يصنعه الإسلام في رحلة الحج كل عام ؟!

7- اكتساب منافع متنوعة : إيمانية و علمية وثقافية واجتماعية :

قال تعالى (ليشهدوا منافع لهم) : **منافع** : هكذا بالتنكير، ومن غير تحديد.. ومن ثم، فهي مفتوحة وعامة ومطلقة.. مما يدل بدوره على أن منافع الحج كثيرة ومتنوعة، بل وغير محصورة –لو أعددنا لها الإعداد الأمثل، واستثمرنا هذا الموسم أحسن استثمار: مادياً ومعنوياً، سياسياً وثقافياً فكرياً، واجتماعياً.

- ولقد نبهنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى الله عليه وسلم إلى قيمة الحج **كـ "مؤتمر عالمي أكبر"**؛ حيت اتخذ منه منبراً لإذاعة أهم القرارات والبلاغات والتوجيهات والقضايا التي تتصل بالسياسة العامة للمسلمين؛ ففي الحجة التي تمت في السنة التاسعة للهجرة، تحت إمارة أبي بكر الصديق، أٌعلن على الناس، بتوجيه من النبي صلى الله عليه وسلم ، قرار إلغاء المعاهدات التي عقدت مع المشركين؛ إذ قد نكثوها وعبثوا بها وخرجوا عليها .

وفي العام التالي، حج رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه -حجة الوداع، وألقى خطاباً لم تَعِ مسامع الوجود أرقى من مبادئه، ولا أشرف من مقاصده: جاعلاً إياه سجلاً صادقاً لحقوق الإنسان وحريات الأمم، وملخصاً فيه أهم مبادئ الإسلام.

وعلى درب رسول الله صلى الله عليه وسلم سار الخلفاء الراشدون؛ إذ جعلوا من موسم الحج مؤتمراً يلتقون فيه بالولاة والعمال والقضاة، والعاملين على الزكاة، وقادة الجند، والفقهاء وأهل الرأي، بل وجمهور الناس من مختلف الأقاليم الإسلامية؛ حتى توضع صورة واقع الأمة أمام العقل القائد والمفكر – الخليفة الراشد- ؛ ليغيث الملهوف، وينصف المظلوم، ويرد الحق إلى أهله، ويضبط الأمور ويرشدها وينظمها، ومن كانت له مظلمة أو شكاية أو اقتراح فليتقدم به له .

وعلى درب الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين سار التابعون بإحسان؛ فكان موسم الحج منتدى للقراء والفقهاء والمحدثين وأهل الفكر والأدب، يتبادلون فيه الآراء والأفكار والخبرات والاجتهادات والروايات؛ لتنمو في الأمة ملكات الضبط والحوار والتعقل والاجتهاد واحترام الرأي الآخر .

واليوم.. وفي ظروف عصرنا الحديث، وعلى ضوء الو اقع البائس الذي تحياه أمتنا - التي أصبحت "أمماً شراذم" بعد أن كانت أمة واحدة، رغم ما لديها من إمكانيات مادية، ورغم ما تملك من عقول مبدعة ومفكرة وخلاقة.. هل نطمح ونطمع ونتطلع إلى إعادة شعيرة الحج " مؤتمراً عالمياً أكبر" لأمة الإسلام، و"لقاءً جامعاً" لعقل الأمة الراشد؛ يتأمل واقعها، ويرسم لجمهورها سبل الخلاص؟!.. ما ذلك على الله بعزيز، ولا على المخلصين المصلحين "المتضامنين المتضامين"ببعيد !!

والحج - عند سبر غوره- رحلة علمية وثقافية وتوسيع لأفق المسلم، ووصل له بالعالم الكبير من حوله.. هكذا ينبغي أن تكون رحلة الحج من أولها إلى آخرها، بذهابها ورجوعها، بإقامتها وتنقلاتها.. فمشاهدة البلدان وأهلها، ومجالسة العلماء والحكماء والمثقفين، وحضور الدروس والمحاضرات –على اختلاف أنواعها- وزيارة المواقع الأثرية والمآثر الإسلامية التي شهدت بزوغ فجر الإسلام وسطوع نوره على الأرض .. كل ذلك علم وثقافة، وتفقه وخبرة، لا ينبغي للحاج أن يضيعها أو يقلل من شأنها؛ لأنها من المنافع التي دعانا الله لأجل شهودها وتحصيلها باعتبارها من مقاصد الحج وثماره.

وفي الحج "تدريب على تحمل المشقات"، واحتمال الشدائد، والصبر على المكاره؛ إذ السفر للحج ركوب للمشقات، ومفارقة للأهل والوطن، وتضحية بالراحة والدعة والمال... وفيه "تدريب على مواجهة الحياة كما فطرها الله": بأزهارها وأشواكها، وشهدها وصبرها، وحرها وقرها؛ إذ حياة

الحاج أشبه بحياة الكشاف - وخاصة في خيام منى وعرفات- في بساطتها وخشونتها، وتنقلاتها وارتحالاتها، واعتمادها على النفس، وبعدها عن الترف والتكلف والتعقيد.. مع ما قد يصطدم به الحاج من مناخ سيء؛ إذ أشهر الحج دائرة مع شهور السنة القمرية؛ وهي أشهر - كما نعلم- تأتي أحياناً في وقدة الصيف، وأحياناً في زمهرير الشتاء.. كل ذلك ليكون المسلم على استعداد لتحمل كل الأجواء، والاصطبار على كل ألوان الصعوبات.. فأعظم بها من منافع !!

إن الحج شحن لبطارية الروح والإيمان يملأ جوانح المسلم بالتقى والخشية من الله، والعزم على طاعته، والندم على معصيته.. ويغذي فيه عاطفة الحب لله ولرسوله ولمن عزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه.. فيعود المسلم أصفى قلباً، وأطهر مسلكاً، وأقوى عزيمة على الخير، وأصلب عوداً أمام مغريات الشر .. ينشئه الحج خلقاً آخر، ويعيده كيوم ولدته أمه. - والحج تبادل للمنافع التجارية والاقتصادية -على نطاق واسع- بين المسلمين.. أو هكذا يجب أن يكون.. وموسم الحج - في واقع أمره اليوم- مجرد "استهلاك" لسلع يصنع أغلبها غير المسلمين، بل إن "سجادة الصلاة" و" بوصلة القبلة" يصنعها الوثنيون للمسلمين !!

*** * * * * ***

المطلب الثالث

الحِكَم من تنوّع العبادات في ضوء الكتاب والسنة

إذا كانت العبادات تعبر عن تذلل المخلوق لخالقه، وعن حبه لربه وتعلقه به، فقد يقول قائل: لِمَ تنوعت العباداتُ واختلفتْ أشكالُها؟ فالله جعل لنا عبادة الصيام والصلاة والذكر وتلاوة القرآن، فلماذا تنوعت هذه العبادات وما قصرنا على عبادة واحدة؟

والجواب : أن العبادات تنوعت أشكالها وأحوالها لتحدث في القلب ذلاً لله، وحباً له، تتذلل له وتحبه، ومن هنا كان لله تعالى حكماً جليلة في تنويع تلك العبادات ، ومنها [63]:

الأمر الأول : الطريق إلى الله هي واحدة جامعة لكل ما يُرضي اللهَ، وما يرضيه متعدد متنوع بحسب الأزمان والأماكن والأشخاص والأحوال؛ لاختلاف استعدادات العباد وقوابلهم وتخفيفا عنهم وتيسيرا بما يتلاءم مع قدرتهم في المنشط والمكره، في تنوع الفرائض والواجبات من العبادات .وفي ذلك اختبار و ابتلاء للمؤمن على غلبته لهواه، فانتقال العبد من عبادة إلى أخرى بحسب وقت كل منها وحكمها دليل على أنه عبد حقيقي لله تعالى .

يقول الشيخ العثيمين رحمه الله في الشرح الممتع : ثم اعلم أن حكمة الله .عزّوجل،. أن الله نوّع العبادات في التكليف؛ ليختبر المكلف كيف يكون امتثاله لهذه الأنواع، فهل يمتثل ويقبل ما يو افق طبعه، أو يمتثل ما به رضا الله عزّوجل؟

فإذا تأملنا العبادات: الصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، وجدنا أن بعضها بدنيٌّ محض، وبعضها ماليٌّ محض، وبعضها مركّب، حتى يتبين الشحيح من الجواد، فربما يهون على بعض الناس أن يصلي ألف ركعة، ولا يبذل درهماً، وربما يهون على بعض الناس أن يبذل ألف درهم ولا يصلي ركعة واحدة، فجاءت الشريعة بالتقسيم والتنويع حتى يعرف من يمتثل تعبداً لله، ومن يمتثل تبعاً لهواه .

* * *   * * * *   * * *

الأمر الثاني : في تنوع العبادات ميدان فسيح للعمل: فمن الناس مَن يُفتح له في عمل دون غيره، وكل مُيَسَّر لما خُلِقَ له، والناس يتفاضلون في هذا الباب كما ذكر العلماء فمنهم من يكون العلم أيسر عليه من الزهد، ومنهم من يكون الزهد أيسر عليه، ومنهم من تكون العبادة أيسر عليه منهما،

63- محاضرة : صوم رمضان [1] للشيخ : عبد الرحيم الطحان – إسلام ويب – محاضرات مفرغة ، وخطبة : نعمة تنوع العبادات وتعددها - الشيخ د. : عبدالباري بن عواض الثبيتي – ملتقى الخطاب – بتصرف .

فالمشروع لكل إنسان أن يفعل ما يقدر عليه من الخير، **كما قال الله تعالى : (فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ)**[التَّغَابُنِ: 16].

وإذا علم المسلم وأدرك عظيم نعمة تنوع العبادات لزمه أن يشكر ربه عليها بالسعي فيها، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، أو يشرب الشربة فيحمده عليها).

الأمر الثالث : من حكم تنوع العبادات أن الله تبارك وتعالى تكفَّلَ لنا بمضاعفة الثواب على الأعمال عشرة أضعاف ، إلى سبعمائة ضعف ، إلى أضَعاف كثيرة ، وذلك بحسب نوع العمل ، وبمقدار الإخلاص فيه وحسن النية المصاحبة له ، وبمقدار إتقانه وإحسانه وأدائه كما أمر الله تعالى وكما علمنا رسوله الكريم .

فهناك عبادات سهلة ويسيرة قد لا يأبه لها المرء ، وأكثرنا من يهملها أو ينساها أو لا يلتفت إليها ، وهي عظيمة بكل المقاييس ، ولا أدَلَّ على ذلك من قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (مَن صلَّى الصُّبحَ في جماعةٍ ثمَّ قعدَ يذكرُ اللَّهَ حتَّى تطلعَ الشَّمسُ ، ثمَّ صلَّى رَكْعتينِ كانت لَهُ كأجرِ حجَّةٍ وعمرةٍ) رواه الترمذي .

* * *   *   *   *   *   * * *

الأمر الرابع : أن النفس البشرية تصاب بملل وسآمة : فلو فرض الله علينا **الصلاة فقط** باستمرار -مثلا - دون عبادة الصيام وتلاوة القرآن وذكر الرحمن، لملَّتْ النفسُ، ولذلك من حكمة الشارع ورحمته بنا أن الصلاة التي هي خير موضوع وأعظم عبادة نهينا عنها في بعض الأوقات، حتى إذا أراد الإنسان أن يتعبد ربه بعبادة الصلاة لا يمل، فلو أراد أن يواصل نهاره بليلة صلاةً ربما سئم هذه العبادة، فإذا طلع الفجر فلا يتنفل حتى تطلع الشمس، فإذا طلعت الشمس فيتنفل إلى ما قبل الزوال، فإذا صار وقت الزوال فلا يتنفل حتى يصلي الظهر، فإذا صلى الظهر يصلي ما شاء إلى العصر، فإذا صلى العصر فلا تنفُّل، نهي عن الصلاة في هذا الوقت حتى تغرب الشمس.

* * *   *   *   *   *   * * *

الأمر الخامس : كل عبادة من العبادات التي فرضها الله علينا لها أثر في تهذيب النفس : مع أنها تحقق الأصل من مشروعيتها لكن كل عبادة أيضا فيها أثر جانبي لا يوجد في غيرها، فهذه العبادات المتنوعة تحافظ على جميع الآثار من تلك العبادات، فعبادة **الصيام** : **(لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)** [البقرة:183]، عبادة **الصلاة**: **(تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ)** [العنكبوت:45]، عبادة **الزكاة**: **(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً**

تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا) [التوبة:103] - كما سبق بيانه في المقاصد - فإذا اجتمعت هذه الآثار في النفس البشرية صارت في منتهى الكمال .

الأمر السادس : الذي من أجله نوعت العبادات وتعددت أشكالها : لئلا يقوم الناس بالعبادات على مقتضى العرف والعادة، فتخرج العبادة من عبادة إلى عادة، فإذا كانت عادة فلا قداسة لها في نفوسهم وسرعان ما تتغير وتزول عندما تطرأ عليهم عادة أخرى، ولا يحصل تعظيم للمعبود بهذه العبادات.

وفي ذلك اطمئنان لقلب العبد، وانشراح صدره بالعبادات كما سيحصل ربط العبد بربه وخالقه، واستشعار الافتقار إليه، وحاجته الدائمة له جلّ جلاله. وفي ذلك صلاح أحوالهم في الدنيا والآخرة.

* * * * * * * * * *

فائدة مهمة [64] :

كما أن الله غني عن وجودنا فهو غني عن أعمالنا وطاعاتنا، وهو إنما تفضل علينا بتكليفنا بعبادته لنسعد في هذه الحياة وبعد الممات، ولولا أن الله من علينا ببعثة الرسل وإنزال الكتب لكنا في دركة البهائم، فالله غني عنا وعن عبادتنا، وكلفنا بهذه العبادات لنسعد في الدنيا وفي الآخرة. ثبت في مسند الإمام أحمد والكتب الستة من حديث أنس وأبي هريرة رضي الله عن أصحاب رسول الله أجمعين، أن النبي صلى الله عليه وسلم أدرك شيخاً كبيراً يمشي بين ابنين يتوكأ عليهما، فقال النبي صلى الله عليه وسلم:(ما شأن هذا؟ فقال ابناه: يا رسول الله صلى الله عليه وسلم! إنه نذر أن يحج ماشياً، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: يا أيها الشيخ! إن الله غني عنك وعن نذرك) ، أي: إذا كان المشي يكلفك وأنت في هذا السن، وقد وصلت للشيخوخة، وفي حال إعياء وتعب، فلا داعي لهذا الجهد ولا لهذا النصب، إن الله غني عنك وعن نذرك.

وثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه: أن أخته نذرت أن تحج ماشية إلى بيت الله الحرام، وأمرته أن تسأل النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك؟ فقال له النبي عليه الصلاة والسلام:(لتركب)، والمشي إلى بيت الله طاعة، فإذا كان يشق عليها فلتركب، وإذا نذرت ذلك فلتتحلل من نذرها بهدي تقربه إلى ربها جل وعلا، كما ثبت في سنن أبي داود رضي الله عنه زيادة: (لتركب ولتهد هدياً) ، أي: لتقدم شيئاً تتحلل به من نذرها، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

64- محاضرة : الحكمة من عبادة رب العباد - للشيخ : عبد الرحيم الطحان – محاضرات مفرغة – موقع إسلام ويب .

وقد اتفق جمهور الفقهاء على أن الإنسان إذا نذر أن يحج ماشياً وصعب عليه فليركب وليقدم هدياً شاة لله جل وعلا يدفعها صدقة للفقراء والمساكين. وذهب بعض السلف كعبد الله بن الزبير وغيره رضي الله عنهم أجمعين أنه إذا نذر أن يحج ماشياً وصعب عليه، فالله غني عنه وعن نذره، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها، وليحج ماشياً، وليحج راكباً ولا شيء عليه.

*** * * * * ***

المبحث الرابع

كيف يتلذذ المسلم بالعبادة

مدخل : أهمية علو الهمة في التسابق إلى العبادات .

المطلب الأول : عشرة قواعد للتلذذ بالعبادة .

المطلب الثاني : كيفية التلذذ بالعبادة (الصلاة نموذجا) .

مدخل

أهمية علو الهمة في التسابق إلى العبادات

الهمة العالية لا تقف دون الله سبحانه وتعالى، ولا تتعوض عنه بشيء سواه، ولا ترضى بغيره بدلاً منه، ولا تبيع حظها من الله وقربه والأنس به والفرح والسرور والابتهاج به بشيء من الحظوظ الخفيفة الفانية.

ولا شيء أسرع في إيصال العبد إلى ربه والفرح به من القيام بالعبادات كما قال تعالى : (**وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ**) [آل عمران: 133]، وقال تعالى: (**سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ**) [الحديد: 21]. وقال تعالى : (**وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً**) [المزمل:8] أي انْقَطِعْ إِلَيْه.

وقال تعالى: (**إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ**) [المؤمنون: 57 - 61].

وجاء في الحديث القدسي: (**وَمَا تقرَّبَ إِلَيَّ عبْدِي بِشْيءٍ أَحبَّ إِلَيَ مِمَّا افْتَرَضْت عليْهِ: وَمَا يَزالُ عَبْدِي يتقرَّبُ إِلَى بالنَّو افِل حَتَّى أُحِبَّه، فَإِذا أَحبَبْتُه كُنْتُ سمعهُ الَّذي يسْمعُ بِهِ، وبَصره الَّذِي يُبصِرُ بِهِ، ويدَهُ الَّتي يَبْطِش بِهَا، ورِجلَهُ الَّتِي يمْشِي بِهَا، وَإِنْ سأَلنِي أَعْطيْتَه، ولَئِن اسْتَعَاذَنِي لأُعيذَّنه**) رواه البخاري.

وقال صلى الله عليه وسلم لِرَجُلٍ وَهُوَ يَعِظُهُ:(**اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغُلِكَ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ**) المستدرك للحاكم وصححه الألباني.

* * *   *   *   *   *   * * *

فتلك النصوص وغيرها مما جعلت الصحابة رضي الله عنهم يتسابقون في الطاعات والآثار التي تدل على علو هممهم كثيرة جدا ، ولكن نكتفي بالنزر اليسير مما التذكير:

عِندمَا أَرادَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ الخروجَ لقِتالِ الرُّومِ في غَزوةِ تبُوك، دعَا النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ النَّاسَ إلى تجهيزِ الجَيشِ، وحضَّ على الإنفاقِ والبَذلِ، ولاسيَّما أهلُ الطَّوْلِ واليَسارِ، وقد كانَ

لهذِه الغَزوةِ ظُروفُها مِن بُعدِ المسافةِ، والحرِّ الشديدِ، والعدُوِّ الكثيرِ، والمُنافِقِينَ والخالِفينَ والقاعِدِينَ.

فسارَعَ عُمرُ رضي الله عنه وقال في نفسِه: الْيَوْمَ أَسْبِقُ أَبَا بَكْرٍ إِنْ سَبَقْتُهُ يَوْمًا، فَجاءَ بِنِصْفِ مَالِه، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟»، قال: مِثْلَهُ. قَالَ: وَأَتَى أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِكُلِّ مَا عِنْدَهُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟» قَالَ: أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فقالَ عُمرُ: (**لَا أُسَابِقُكَ إِلَى شَيْءٍ أَبَدًا**). رواه أبو دَاوُد وحَسنهُ الألبانيُّ.

وأما عُثمانُ رضيَ الله عنه فكانَ أكثَرَ الصحابةِ مالاً، وأيسَرَهُم حالاً، فلمَّا سمِعَ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ يحُثُّ على تَجهِيزِ الجيشِ، قامَ بتجهيزِ الجيشِ كُلِّه مِن مَالِهِ، يَقولُ عُثمانُ يومَ الحِصارِ: أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (**مَنْ جَهَّزَ جَيْشَ العُسْرَةِ فَلَهُ الجَنَّةُ**) فَجَهَّزْتُهُمْ، قَالَ: **فَصَدَّقُوهُ بِمَا قَالَ**. رواه البخاريُّ.

ولَم يَكتفِ عُثمانُ بذلكَ، فعَن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَمُرَةَ، قَالَ: جَاءَ عُثْمَانُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَلْفِ دِينَارٍ فِي كُمِّهِ حِينَ جَهَّزَ جَيْشَ الْعُسْرَةِ فَنَثَرَهَا فِي حِجْرِهِ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقَلِّبُهَا فِي حِجْرِهِ وَيَقُولُ: (**مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ اليَوْمِ مَرَّتَيْنِ**) رواهُ الترمذيُّ وحسَّنَه.

*** * * * * ***

ومما يدل علو هممهم رضي الله تعالى عنهم ما رواه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رجلاً قال: يا رسول الله! إن المؤذنين يفضلونا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**قلْ كما يقولون، فإذا انتهيتَ فسلْ تُعْطَه**). رواه أبوداود وقال الألباني في صحيح أبي داود : حسن صحيح .

ومن ذلك أيضاً ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه : أنَّ فُقَرَاءَ المُهَاجِرِينَ أَتَوْا رَسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ، فَقالوا: ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بالدَّرَجَاتِ العُلَى، وَالنَّعِيمِ المُقِيمِ، فَقالَ: **وما ذَاكَ؟** قالوا: يُصَلُّونَ كما نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كما نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ وَلَا نَتَصَدَّقُ، وَيُعْتِقُونَ وَلَا نُعْتِقُ، فَقالَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ: (**أَفلا أُعَلِّمُكُمْ شيئًا تُدْرِكُونَ به مَن سَبَقَكُمْ وَتَسْبِقُونَ به مَن بَعْدَكُمْ؟ وَلَا يَكونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنكُم إلَّا مَن صَنَعَ مِثْلَ ما صَنَعْتُمْ**) قالوا: بَلَى، يا رَسولَ اللهِ قالَ:(**تُسَبِّحُونَ، وَتُكَبِّرُونَ، وَتَحْمَدُونَ، دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ مَرَّةً**)؛ فَرَجَعَ فُقَرَاءُ المُهَاجِرِينَ إلى رَسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ، فَقالوا: سَمِعَ إخْوَانُنَا أَهْلُ الأمْوَالِ بما فَعَلْنَا، فَفَعَلُوا مِثْلَهُ، فَقالَ رَسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ: (**ذلكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ**) رواه مسلم.

ويروى عن سليمان بن بلال رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خرج إلى بدر أراد سعد بن خيثمة وأبوه جميعاً الخروج معه، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم، فأمر أن يخرج أحدهما، فاستهما، فقال خيثمة بن الحارث لابنه سعد رضي الله عنهما: إنه لا بد لأحدنا أن يقيم فأقم مع نسائك، فقال سعد : لو كان غير الجنة لآثرتك به، إني أرجو الشهادة في وجهي هذا، فاستهما فخرج سهم سعد ، فخرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بدر فقتله عمرو بن عبد ود).فهذا تسابق في أمور الآخرة وتنافس فيها.

* * *   * * * *   * * *

ولذلك لا إيثار في أمور الآخرة كما ترون هنا، وهذا على أحد أقوال العلماء، فمن قلة الفقه أن تكون لك فرصة في أن تصلي في الصف المقدم -مثلاً- وتقول لأخيك: تقدّم أنت، فهذا قلة فقه، فالمفروض أنك أنت تسابقه، وتحتل المكان قبله، فقد كان الصحابة رضي الله عنهم إذا أقيمت الصلاة يتبادرون ويتسابقون إلى الصف الأول .

ومن قلة الفقه أيضاً إذا كانت النوبة لطالب أن يسمّع على شيخ القرآن مثلاً، فلا يقول لأخيه : تقدَّم أنت قبلي، بل يتنافس ويتسابق ويكون المقدم في أعمال الآخرة، كما كان الصحابة يتنافسون في أمور الآخرة، وأما في الدنيا فيلقيها في نحر من يطلبها

ما أَحوجَنَا وخاصةً في هذا الزمانِ إلى التَّسابُقِ على فِعلِ الخَيراتِ والازديادِ مِنهَا، فمَيادِينُ الأعمالِ الصالحةِ كَثيرةٌ، وسُبُلُ الخَيرِ مُتنوّعةٌ، والواحدُ مِنَّا يَستطيعُ أنْ يَعمَلَ الكثيرَ والكثيرَ، ولكِنْ مَا يَنقُصُنَا هوَ التَّحرُّكُ والعملُ والمبادرةُ إلى عَملِ هذه الصالحاتِ.

حَاوِلْ كُلَّما سَمِعتَ في خُطبةٍ أَو دَرسٍ أو مَقطعٍ أو تَغريدةٍ عَن عَملٍ صَالحٍ، أَن تَسعَى في القِيامِ بهِ وتَطبيقِهِ، حتى لا يَفُوتُكَ الخيرُ، وحتى تَكونَ مِنَ السَّبَّاقِينَ للخيراتِ، وإذا سَمعتَ حَثًّا على طاعةٍ أوزَجراً عَن مَعصيةٍ فطَبِّقْ هذا في حَياتِكَ، واسْعَ إلى تَطبيقِهِ مَا استطعتَ إلى ذلكَ سبيلاً، و إيَّاكَ أَن تَسمَعَ بأَمرٍ تُؤمَرُ بهِ أو نَهيٍ تُنهَى عَنهُ ثُم تَخرجُ مِنَ الدُّنيَا دُونَ أن تُطبِّقَهُ في عُمُرِكَ [65].

* * *   * * * *   * * *

65- علو الهمة [1] للشيخ : محمد إسماعيل المقدم – موقع إسلام ويب – محاضرات مفرغة . وخطبة : التسابق للخيرات – للشيخ أحمد بن عبد الله الحزيمي – شبكة الألوكة الشرعية – بتصرف.

المطلب الأول

عشر قواعد للتلذذ بالعبادة

بعد ما سبق ذكره من آثار حول مسابقة الصحابة للطاعات ومسارعتهم في القيام بالعبادات لنا نتساءل لماذا كانوا بتلك الدرجة من المسارعة والمسابقة ؟

لا شك أنهم وجدوا في تلك العبادات شيئا نحن افتقدناه - في غالب أحوالنا ومن الأكثرين منا - فلم نسارع كما سارعوا ولم نتنافس كما تنافسوا ؟ ذلك الشئ هو اللذة والحلاوة التي تمتلئ بها القلوب عند التوجه إلى علام الغيوب جل وعلا إضافة إلى رغبتهم العظيمة في الأجر والثواب .

لقد ورد عن بعض الصالحين أنه كان إذا دخل الليل أغلق عليه بابه وتلا قوله تعالى :(**فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ**) سورة الحديد(13) .

وقد يقول لي قائل : ما دليلك على أننا افتقدنا تلك اللذة والحلاوة أقول لك أخي الحبيب سل نفسك هذه الأسئلة بينك وبين نفسك :

متى آخر مرة دمعت عينك و أنت و اقف بين يدي الله تعالى تناجيه في الصلاة ؟ .

ومتى آخر مرة دمعت عينك و أنت تتلو آيات الجنة طمعاً وشوقاً أو آيات النار خوفاً ورهباً ؟

وهل تشتاق إلى دخول وقت الصلاة أو تتحين في يومك ساعات تجلس فيها تذكر رب الأرض والسموات ؟

نحن نرى كثيرا من المسلمين ممَّنْ تحولت العبادة في حياته إلى عادات فإن صلى لا يشعر فيها بخشوع قلبه بين يدي ربه كما لا يشعر بخضوع جوارحه ، ولعل الكثيرين لا يعلمون أن لأفعال الصلاة من ركوع أو سجود أثراً كبيراً في حضور القلب وخشوعه بين يدي الرب ، وقس على قلة الخشوع في الصلاة قلة الخشوع في التلاوة والذكر ونحوهما .

وقد قدمت الكلام على مقاصد العبادات لأن المسلم حين يفهم تلك المقاصد فسوف يسعى جاهدا لتحقيقها من خلال تعبده لربه بأي عبادة كانت وهذا ما سيجعله يتلذذ بها ويحضر قلبه عندها ، وللوصول إلى التلذذ بها أسباب ستكشف عنها السطور التالية [66]:

66- مقال لذة العبادة - د. أمين بن عبدالله الشقاوي – شبكة الألوكة ، ومحاضرة : تربية النفس على العبادة – الموقع الرسمي للشيخ محمد صالح المنجد - بتصرف .

القاعدة الأولى : العلم بالعبادة : لا شك أن العلم بالعبادة ركن مهم لكي تصح؛ لأن العبادة تتحول إلى بدعة إذا كانت بناءً على جهل، فإنه لا يُعبد الله إلا بالعلم ، وبنور من العلم، وهذا هو سبب وقوع الكثيرين ممن أرادوا التعبد لله والتنسك، إذ وقعوا في البدع، والسبب هو جهلهم، ولذلك قال تعالى : (**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**) [فاطر: 28]؛ لأنهم علموا الشريعة، وعلموا العبادة، وطبقوا ذلك، وما رسوه، وهذا أمر بدهي ومعروف، لا يعبد الله إلا بما شرع، ولا يعبد بالبدع.

القاعدة الثانية : اليقين بأن للعبادة لذة : على المسلم أن يتيقن أنَّ مِنْ أعظم نعم الله تعالى على بعض عباده أن يمنحهم التلذذ بعبادته ومناجاته، وأعني بذلك ما يجده المسلم من راحة النفس وسعادة القلب، وانشراح الصدر عند القيام بعبادة من العبادات، وهذه اللذة تتفاوت من شخص لآخر حسب قوة الإيمان وضعفه.

قال تعالى: ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [النحل: 97].

ومن هنا يجدر بالمسلم أن يسعى جاهدًا إلى تحصيل لذة العبادة، فالنبي - صلى الله عليه وسلم - كان يقول لبلال: **(قم يا بلال فأرحنا بالصلاة)** [67] لما يجده فيها من اللذة والسعادة القلبية، وإطالته - صلى الله عليه وسلم - لصلاة الليل دليل على ما يجده في الصلاة من الأُنس والسرور بمناجاة ربه، وتصديق ذلك في كتاب الله، قال تعالى: ﴿**وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ**﴾ [البقرة: 45].

* * *   * * * *   * * *

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أنس - رضي الله عنه - أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله و رسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يلقى في النار).**

وفي رواية عند مسلم : (**من كان أن يلقى في النار أحب إليه من أن يرجع يهوديًا أو نصرانيًا**).

وبكى معاذ بن جبل رضي الله عنه عند موته فقيل له في ذلك قال: إنما أبكي على ظمأ الهواجر وقيام ليل الشتاء، ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر.

67- سنن أبي داود برقم (4986)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (941/3) برقم (4171).

ويقول ابن تيمية - رحمه الله - إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة [68].

ويقول أحد السلف : مساكين أهل الدنيا، خرجوا منها وما ذاقوا أطيب ما فيها، قيل: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله تعالى ومعرفته وذكره أو نحو هذا [69].

* * *   *   *   *   *   * * *

القاعدة الثالثة : مجاهدة النفس على القيام بالعبادة دون أدائها بأكمل صورة : وقد تنفر النفس في بداية طريق المجاهدة، ولكن إذا شمر صاحبها عن ساعد الجد، وكانت عنده تلك الإرادة والعزيمة القوية، فسينالها بإذن الله، فالأمر يتطلب مصابرة وقوة تحمل.

قال تعالى : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ [آل عمران: 200]. وقال تعالى : ﴿**وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى**﴾ [طه: 132].

وروى الترمذي في سننه من حديث فضالة بن عبيد الله رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (المجاهد من جاهد نفسه) .

قال أحد السلف : ما زلت أسوق نفسي إلى الله وهي تبكي حتى سقتها وهي تضحك.

وقال ابن رجب رحمه الله تعالى : **واعلم أن نفسك بمنزلة دابتك، إن عرفت منك الجد جدت، وإن عرفت منك الكسل طمعت فيك وطلبت منك حظوظها وشهواتها** [70].

قال الشاعر:

لأَستسْهلَنَّ الصعبَ أو أدركَ المُنى   فما انقادتِ الآمالُ إلا لصابرِ

* * *   *   *   *   *   * * *

القاعدة الرابعة : الاستمرار على العبادة : للحديث القدسي السابق **(وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه)** وهذا المبدأ، وهو الاستمرار على العبادة مهم في تقوية الإيمان، وعدم إهمال النفس، حتى لا تركن وتأسن، والقليل الدائم خير من الكثير المنقطع؛ ذلك أن بعض الناس إذا سمع خطبة، أو موعظة، قد يتحمس للعبادة، ويستمر في هذا الحماس أياماً، ولكنه بعد ذلك

68- الوابل الصيب من الكلم الطيب (ص 81).

69- السابق .

70- نقلًا عن كتاب لذة العبادة (ص 12) .

ينطفئ حماسه، ويعود إلى سابق عهده، من الدعة والكسل عن العبادات، والتقاعس عن الأعمال الصالحة.

ولذلك فإن من التربية : أن يعود الإنسان نفسه على الالتزام بقدر من العبادة، يداوم عليه من الأعمال المشروعة.

أما الواجبات، فلا بد من القيام بها دائماً، لكن المستحبات، قراءة القرآن، وذكر الله، ونحو ذلك، لا بد أن يعود الإنسان نفسه على القيام بشيء منها، فلما سئل النبي صلى الله عليه وسلم: أي الأعمال أحب إلى الله؟ قال: (**أدومها وإن قل**) رواه البخاري .

يعني : أن المسلم مطالب بأن يستمر، وهذا معنى المداومة ، وروى الإمام مسلم رحمه الله في صحيحه : (**أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا عمل عملاً أثبته**) رواه مسلم . فداوم عليه، واستمر عليه.

تنبيه : وهذه القاعدة تختلف عن قاعدة مجاهدة النفس ؛ لأن مجاهدة للقيام بالعبادة وإحسانها وهذه مجاهدة أخرى في الديمومة دون انقطاع مهما كانت الأسباب والظروف .

* * *   * * * *   * * *

القاعدة الخامسة : عدم إملال النفس من العبادة :

عدم إملال النفس، ليس المقصود من المداومة على العبادات، والاجتهاد فيها إيقاع النفس بالسآمة، وتعريضها للملل، وإنما المقصود عدم الانقطاع عن العبادة والموازنة بين الأمرين، وذلك بأن يكلف المسلم نفسه من العبادة ما يطيق، ويسدد، ويقارب، فينشط إذا رأى نفسه مقبلة، ويقتصد عند الفتور، يقتصد، بمعنى: يمسك الواجبات، ويعمل ما تطيق نفسه من المستحبات، ولو كان أقل من أيام النشاط؛ لأنها لقط أنفاس ليتابع العمل بعد ذلك.

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : (**إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا، واستعينوا بالغدوة، والروحة، وشيء من الدلجة**) رواه البخاري .

فلا بد من مراعاة النفس، إذا أقبلت أعطها المجال للزيادة؛ لأن النفوس لها إقبال وإدبار، لها ارتفاع وانخفاض، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم (**لكل عمل شرة**) .

وفي رواية: (لكل عامل شرة) [71]، يعني نهاية عظمى وقمة : ولكل شرة فترة تقابلها وتعقبها. وهكذا في ازدياد ونقصان، الإيمان يزيد وينقص، وارتفاع وانخفاض : (فمن كانت فترته إلى سنتي فقد اهتدى) [72].

فمن كان في حال فتوره متبع للسنة، موافق للسنة، بحيث إنه قائم بالواجبات، ممتنع عن المحرمات، فهذا مهتد : فمن كانت فترته إلى سنتي فقد اهتدى من كان في حال فتوره قائم بالواجبات، تارك للمحرمات، فهذا على خير عظيم.

* * *   * * * *   * * *

القاعدة السادسة : ترك فضول الطعام والشراب والكلام والنظر : فيكفي المسلم أن يقتصر في طعامه وشرابه على ما يعينه على أداء عبادته وعمله، فلا يسرف في الأكل قال تعالى: ﴿**وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ**﴾ [الأعراف: 31].

روى الترمذي في سننه وحسن من حديث المقدام بن معدي كرب رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (ما ملأ آدمي وعاء شرًا من بطن، بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه).

قال أحد السلف : راحة القلب في قلة الآثام، وراحة البطن في قلة الطعام، وراحة اللسان في قلة الكلام.

وقال ابن القيم رحمه الله : " ولا تظن أن قوله تعالى : ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: 13، 14] مختص بيوم المعاد فقط، بل هؤلاء في نعيم في دورهم الثلاثة، وهؤلاء في جحيم في دورهم الثلاثة، وأي لذة ونعيم في الدنيا أطيب من بر القلب وسلامة الصدر، ومعرفة الرب تعالى ومحبته، والعمل على موافقته وهل عيش في الحقيقة الا عيش القلب السليم.

القاعدة السابعة : أن يستحضر العبد أن هذه العبادة التي يقوم بها من صلاة أو صيام أو حج أو صدقة إنما هي طاعة لله و ابتغاء مرضاته، وأن هذه العبادة يحبها الله ويرضى عنه بها، وهي التي تقربه من ربه سبحانه.

روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه،

71- مسند الشهاب - حديث رقم (1026) .

72- رواه أحمد – حديث رقم (6764)، وصححه الألباني صحيح الجامع – حديث رقم (2152).

وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنو افل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصربه، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس المؤمن، يكره الموت و أنا أكره مساءته) . لأن استحضار هذا المعنى وهو طلب مرضاة الله من أعظم أسباب حضور القلب وخشوعه لله تعالى .

* * *　　　* * * *　　　* * *

القاعدة الثامنة : أن يستحضر العبد أن هذه العبادات لا تضيع ولا تفنى : كما تفنى كنوز الدنيا وأموالها ومناصبها ولذاتها بل يجدها العبد أحوج ما يكون إليها، بل إنه ليجد ثمراتها في الدنيا مع ما يدخر له في الآخرة مما هو أجل وأعظم؛ فمن استحضر ذلك لم يبال بما فاته من الدنيا وسُرَّ بهذه العبادات ووجد حلاوتها ولذتها، قال تعالى: ﴿**وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا**﴾ [طه: 112] .

روى مسلم في صحيحه من حديث العباس بن عبدالمطلب رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : **(ذاق طعم الإيمان من رضا بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد رسولًا)** .

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (من أنفق زوجين في سبيل الله نودي من أبواب الجنة: يا عبد الله هذا خيرفمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة) .

* * *　　　* * * *　　　* * *

القاعدة التاسعة : البعد عن الذنوب صغيرها وكبيرها : فإن المعاصي حجاب تمنع من الشعور بلذة العبادة لما تورثه من قسوة وغلظة وجفاء.

قال بعض السلف : ما ضرب الله عبدًا بعقوبة أعظم من قسوة القلب .

وقال سفيان الثوري رحمه الله : حُرِمتُ قيام الليل بسبب ذنب أذنبته .

قال ابن القيم رحمه الله : وكلما كثرت الذنوب اشتدت الوحشة وأَمرُّ العيشِ عيشُ المستوحشين الخائفين وأطيبُ العيش عيش المستأنسين فلو نظر العاقل ووازن بين لذة المعصية وما تولد فيه

من الخوف والوحشة لعلم سوء حاله وعظيم غبنه اذ باع أنس الطاعة وأمنها وحلاوتها بوحشة المعصية وما توجبه من الخوف والضرر الداعي له .اهـ[73].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : إذا لم تجد للعمل حلاوة في قلبك وانشراحًا في صدرك فاتهمه، فإن الرب تعالى شكور، يعني أنه لابد أن يثيب العامل على عمله في الدنيا من حلاوة يجدها في قلبه، وقوة انشراح صدر وقرة عين، فحيث لم يجد ذلك فعمله مدخول .

وسئل وهيب ابن الورد فقيل له: متى يفقد العبد لذة العبادة؟ إذا وقع في المعصية، أو إذا فرغ منها؟ قال: يفقد لذة العبادة إذا هم بالمعصية .

* * *   * * * *   * * *

القاعدة العاشرة : رجاء القبول مع الخوف من الرد : وكذلك من الأمور المهمة في العبادة، وتربية النفس عليها، رجاء القبول مع الخوف من الرد، فإن بعض الناس إذا عملوا أعمالاً وعبادات، أصيبوا بنوع من الغرور، أو الاغترار بالعبادة، وشعروا أن فيهم صلاحاً عظيماً، وأنهم صاروا من أولياء الله، **ولكن المسلم متى ما استحضر عظمة الله وجلاله وكبرياءه وعظمته فسوف يخشى ألا تقبل عبادته**، فهو يجتهد ويلتزم بالسنة، ومع ذلك يخشى على نفسه.

عن عائشة رضي الله عنها قالت : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية: (**وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ**) [المؤمنون: 60].هم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: (**لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون، ويصلون، ويتصدقون، وهم يخافون ألا يقبل منهم أولئك الذين يسارعون في الخيرات**) [74].

الخشية هذه من رد العمل مهمة، والمؤمن يجب أن يعيش بين الخوف والرجاء، مهما كثرت العبادة يخشى على نفسه، لربما وقع في عجب أذهب أجرها؟ أو وقع في شيء من الرياء أو الاغترار؟

ثم إنه مهما عبد فلا يكافئ نعمة البصر، فأي شيء يظن في نفسه؟

ومن صفات المؤمنين : احتقار النفس أمام الواجب من حق الله، قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح الذي رواه الإمام أحمد : لو أن رجلاً لاحظ -أيها الأخ- المسلم معنى الحديث

73- الداء والدواء ص (401).

74- رواه الترمذي ، وهو حديث صحيح [السلسلة الصحيحة: 162/1].

هذا: (لو أن رجلاً يُجر على وجهه من يوم ولد إلى يوم يموت هرماً في مرضاة الله عزوجل لحقره يوم القيامة) [75] .

فائدة : ما هي العبادات التي على المسلم أن يكثر منها ؟

أفضل الأعمال بعد الفرائض هي النوافل، يقول النبي صلى الله عليه وسلم : (إن الله تعالى قال : من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه ولأن استعاذني لأعيذنه) رواه البخاري .

ومن أفضل النوافل التي يفعلها العبد :

1- قيام الليل : نوافل الصلوات من أزكى الأعمال عند الله، والليل ثمين بدجاه، وقيامه من نعوت الصالحين المبشرين بجنة النعيم، وهو دليل على رجحان العقل والإيمان، وقربة إلى رب العالمين .

يقول النبي صلى الله عليه وسلم : (يا أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام) رواه الترمذي وقال حسن صحيح .

ومن محاسن أهل الإيمان القيام لله في الظُّلَم : (كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ) [الذاريات: 17] في دجى الأسحار تصفو الأوقات وقد تنافس الصالحون في ظلمائه.

ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يدع قيام الليل في سفر أو حضر وكان يصليه قائماً وقاعداً وعلى راحلته في أسفاره ولو إلى غير القبلة، وكان الصالحون يعيبون على من ترك قيام الليل. يقول أبو سليمان الداراني رحمه الله تعالى : (والله لولا قيام الليل ما أحببت الدنيا) .

يقول الحسن البصري رحمه الله تعالى : " ما ترك أحد قيام الليل إلا بذنب أذنبه " وذلك نابع من وصية النبي صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما حيث قال له : (نعم الرجل عبد الله لو كان يصلي من الليل فكان ابن عمر لا ينام من الليل إلا قليلاً) متفق عليه.

75- رواه أحمد:(17649)، وصححه الألباني صحيح الجامع:(5249) .

ومن شرف العبودية التعبد ليلاً، والنفس لا تشرف إلا بعبوديتها لله، ولا يليق بشاب مستقيم أن يدع قيام الليل ولو نصف ساعة قبيل الفجر يناجي فيها ربه زَمَن فتح أبواب السماء، ولم يكن السلف يدعون قيام السحر .

يقول طاووس رحمه الله تعالى : كنت أظن أن لا يدع أحد قيام السحر .

2- الإكثار من الذكر: ذكر الله ميزان الرفعة والتكريم، وهو خير ما يعطر به اللسان، وهو باب مفتوح بين العبد وبين ربه ما لم يغلقه العبد بغفلته [76].

يقول ابن القيم رحمه الله : في الوابل الصيب : " إنه - أي الذكر - يورثه ذكر الله تعالى له، كما قال تعالى : (**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ**) [البقرة: 152] ولو لم يكن في الذكر إلا هذه وحدها لكفى بها فضلاً وشرفاً " بالإكثار من الذكر يسمو العبد عند ربه، ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم كان يذكر الله على كل أحيانه.

بالذكر سعادة القلب والأنس بالله، يقول ابن القيم - الوابل الصيب - **: " وقال لي مرة شيخ الإسلام: لا أترك الذكر إلا بنية إجمام نفسي وإراحتها لأستعد بتلك الراحة لذكر آخر "** .

3- تلاوة القرآن الكريم : الكتاب العزيز عُمدة الملة، وينبوع الحكمة، وآية الرسالة، ونور الأبصار والبصائر، بتلاوته والعمل به يعلو الشأن، ويزهو القدر ويزيد الإيمان، والقرآن العظيم أصل العلوم وأسها، ومنه تؤخذ الأخلاق والآداب، وحفظ كتاب الله حفظ بإذن الله للعبد من الشرور والفتن، وحصن من الشبهات والشهوات، فاجعل تلاوة القرآن على لسانك متدبراً لها بقلبك .

4- صيام ثلاثة أيام من كل شهر: صيام ثلاثة أيام من كل شهر كصيام جميع الشهر، كل يوم بعشرة أيام كرماً من الله ومنة، وصيامها هي وصية النبي صلى الله عليه وسلم لأبي هريرة، يقول أبو هريرة رضى الله عنه : (**أوصاني خليلي بثلاث صيام ثلاثة أيام من كل شهر وركعتي الضحى وأن أوتر قبل أن أنام**) متفق عليه .

* * *   *   *   *   *   * * *

76- ستجد المزيد في الرسالة الرابعة من هذه السلسلة حول فضائل الذكر وهي بعنوان :تَشْوِيقُ القُلُوبِ إِلَى ذِكْرِ عَلَّامِ الغُيوبِ.

المطلب الثاني

كيفية التلذذ بالعبادة (الصلاة نموذجا)

بداية ينبغي أن نعرف قدر الصلاة ومنزلتها في الدين وضرورة المحافظة عليها والإكثار منها وإتقانها والخشوع فيها ، وسأذكر لك أخي الفاضل وأختي الفاضلة بما يدل على عظيم قدرها وعلو منزلتها في النقاط التالية [77]:

1- الله تعالى سمّى الصلاة إيماناً كما في قوله تعالى : (**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ**) سورة البقرة(143). والمعنى- وما كان الله- تعالى- ليذهب صلاتكم وأعمالكم الصالحة التي قمتم بها خلال توجهكم إلى بيت المقدس.

2- من أركان الصلاة السجود و (**أَقْرَبُ ما يَكونُ العَبْدُ مِن رَبِّهِ، وهو ساجِدٌ، فأكْثِرُوا الدُّعاءَ.**) ، كما ثبت ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم في صحيح مسلم. وهذه يعني أن القرب يقوي الرجاء في إجابة الدعاء .

3- الصلاة هي أعظم الأسباب المعينة على مرافقة النبي صلى الله عليه وسلم في الجنّة، فقد قال عليه الصلاة والسلام لمن سأله مرافقته في الجنّة : "**أعنّي على نفسك بكثرة السجود**" رواه مسلم .

4- **بالصلاة** يتمايز بها المؤمنون عن المنافقين يوم القيامة وعبر الله عنها بالسجود، كما في قوله تعالى : (**يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ**) القلم (42).

5- الصلاة هي أعظم و أبرز العلامات التي يعرف بها النبي صلى الله عليه وسلم أمته ، كما في الحديث : "**إن أمتي يدعون يوم القيامة غراً محجّلين من آثار الوضوء**..." رواه البخاري ومسلم .

6- الصلاة تحمي صاحبها يوم القيامة ولو دخل النار، كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث" **حرّم الله عزّوجل على النار أن تأكل أثر السجود**" متفق عليه .

7- الصلاة أعظم ما يعصم المسلم من الفواحش والمنكرات والجرائم، كما في قوله تعالى : (**وَ أَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ**) العنكبوت الآية (45) .

77- نقلا من كتابي : المجلي عن روحانيات المصلي الفصل الأول - بيان عظمة قدر الصلاة وفضلها في الإسلام - المبحث الأول : بيان عظمة قدر الصلاة في الإسلام .

8- الصلاة أعظم ما يعصم الدمّ بعد الإيمان بالله تعالى ، قال تعالى : (فَإِن تَابُوا وَ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَ آتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ) التوبة الآية (5) وفي الحديث (إني نهيت عن قتل المصلّين) رواه أبو داود والإمام أحمد وصححه الألباني صحيح الجامع .

9- أمر الله بالاستعانة بالصلاة ، قال تعالى : **(وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ)** البقرة (45).وقال تعالى : **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)** الآية البقرة (153).

والمراد من الاستعانة بالصلاة كما قال بعض العلماء : إن الصلاة رأس الطاعات فمن أقامها فإنها تكون عوناً لع على إقامة بقية الطاعات ، وأما الصبر فهو يستعان به على مغالبة المحرمات .

10- كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر أو أحزنه أمر فزع إلى الصلاة، رواه الإمام أحمد وأبو داود وحسنه الألباني صحيح الجامع .

11- الصلاة هي مصدر الراحة فلذا كان النبي صلى الله عليه وسلم ينادي : **(يا بلال أقم الصلاة، أرحنا بها)** رواه الإمام أحمد وأبو داود وصححه الألباني صحيح الجامع .

12- الصلاة هي قرّة عين النبي صلى الله عليه وسلم كما في الحديث (**جعلت قرّة عيني في الصلاة**) رواه الإمام أحمد وصححه الألباني صحيح الجامع .

13- الصلاة ميزان لسائر الأعمال كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: من حافظ عليها فهو لما سواها أحفظ ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع.

14- **الصلاة ميزان لمعرفة مكانتنا عند الله تعالى، قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى : من أراد أن يعرف مكانته عند الله فلينظر إلى مكانة الصلاة عنده.**

15- الصلاة مناجاة مباشرة بين العبد وربّه، فإذا قرأ المصلّي الفاتحة **(فقال : الحمد لله ربّ العالمين قال الله : حمدني عبدي، فإذا قال : الرحمن الرحيم، قال الله : أثنى عليّ عبدي، فإذا قال : مالك يوم الدين قال الله : مجّدني عبدي)** إلى آخره كما ورد في الحديث الذي رواه مسلم، وقال عليه الصلاة والسلام **(إن أحدكم إذا كان في صلاته فإنه يناجي ربه)** متفق عليه .

* * *   * * * *   * * *

ومن هنا قال بعض الباحثين في بيان هذا المعنى :

فالصلاة هي أعظم الأركان بعد الشهادتين، وهي من أهم أمور الدين، وهي توءم الفرائض والأركان، وهي أم العبادات، وهي أمر وتكليف من الله سبحانه وتعالى، وقد كانت الوصية الأخيرة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبل أن يفارق الدنيا، وهي مرآة عمل المسلم وميزان تعظيم الدين في قلب المؤمن، وهي دعامة جميع الشرائع السماوية، لم تخل منها شريعة نبي مرسل، وهي شعار دار الإسلام، وهي إيمان، وبراءة من النفاق، وهي سبيل المؤمنين، وشعار حزب الله المفلحين، وأوليائه المرحومين، وهي خير موضوع، وهي زلفى وقربى إلى الله عز وجل، وهي مدرسة خلقية، وراحة وسعادة وقرة عين، ونور وبرهان وضياء، وشكر نعم الله وتعالى، وتحرير للبشرية، وناهية عن المنكرات، وعاصمة من الشهوات، وكفارة للسيئات، وماحية للخطيئات، وملجأ المؤمن في الكربات، وهي حفظ وحماية، ومجلبة للرزق، ومفتاح هداية لكثير من غير المسلمين حيث اهتدوا بسبب رؤية الصلاة وتأملهم فيها.

وبناءً عليه نقول : ترك الصلاة من أكبر الكبائر الموبقة، ونفاق، وسواد وظلمة وهلكة في الدنيا والآخرة، وتركها من أسباب سوء الخاتمة والعياذ بالله، وتركها من أسباب عذاب القبر، وتركها شعار أصحاب سقر، وترك الصلاة سبب للغرق في الشهوات وترك الصلاة مصيبة وبلاء [78].

* * *   * * * *   * * *

والآن إليك بعض النصائح الموصلة إلى الخشوع في الصلاة والتلذذ بها [79] :

1- أن تتوجه إلى الله تعالى بالدعاء الخالص بأن يجعلك ممَّن تحقق بقوله تعالى (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ) سورة المؤمنون (1-2) واجعل ذلك أكبر همك في الحياة ، وتذكر أن فلاح الدنيا والآخرة متوقف على خشوعك في صلاتك وأن الخشوع في الصلاة - كما بينه العلماء - إنما يحصل لمن فرَّغ قلبه لها، واشتغل بها عما عداها، و آثرها على غيرها، وحينئذ تكون راحة له وقرة عين .

2- أن تستحضر أن لب الصلاة هو الإقبال على الله تعالى بذلك الخشوع فلذا يجدر بكل مصل أن يتفرغ لها بقلبه وقالبه فلا يأتها وهو ينوي الاسراع فيها ،لأن وراءه عملاً آخر مهم جداً ، وتأمل

78- لماذا نصلي؟ [3] للشيخ : محمد إسماعيل المقدم – محاضرات – مفرغة إسلام ويب .

79- رسالة بعنوان : 33 سببا للخشوع في الصلاة – للشيخ صالح المنجد ، وكتابي المجلي عن روحانيات المصلي .

لماذا نفى النبي صلى الله عليه وسلم اسم الصلاة عمن صلى وهو منشغل بغيرها فقال : (لا صلاة بحضرة طعام ولا وهو يدافعه الأخبثان) رواه مسلم .

3- عليك أخي المصلي أن تحفظ أكثر من ذكر لكل ركن من أركان الصلاة ، فلا تقتصر على ذكر واحد ، وفائدة هذا الحفظ أن تغاير بين تلك المحفوظات بين الحين والآخر فلكل ذكر معانيه وروحانياته التي تختلف عن الذكر الآخر.ولهذا السبب جمعت تلك الأذكار كلها في الفصل الأخير من هذا الكتاب كما سبق بيانه قريباً .

4- من المهم جداً فهم معاني جميع الأذكار المطلوبة في الصلاة سواءٌ أكانت واجبة أم مسنونة إذ لا يتم خشوع إلا بعد فهم معاني الكلام وتدبره .

5- من المهم جداً ايضاً إطالة أركان الصلاة الفعلية وعدم الإسراع في أدائها ، لكي تتمكن من استحضار ما فيها من التعظيم لله تعالى وإجلاله ،كما أنه يجب البطء والتأني في تلاوة الأذكار لكي تتمكن من تدبر ما تقوله وعدم العجلة إذ الملاحظ أن الاستعجال في ذلك يتنافى مع الخشوع .

6- الاستعداد للصلاة والتهيؤ لها : ويحصل ذلك بأمور منها الترديد مع المؤذن والإتيان بالدعاء المشروع بعده ، والدعاء بين الأذان والإقامة، وإحسان الوضوء والتسمية قبله والذكر والدعاء بعده. والاعتناء بالسواك وأخذ الزينة باللباس الحسن النظيف، و التبكير والمشي إلى المسجد بسكينة ووقار وانتظار الصلاة، وكذلك تسوية الصفوف والتراص فيها .

* * *   * * * *   * * *

7- الطمأنينة في الصلاة : المراد بالطمأنينة التي هي ركن في الصلاة ولا تصح إلا بها ، هي : سكون الأعضاء عن الحركة ولو لحظة ، وعند بعض العلماء تكون بقدر الذكر الواجب .فإذا انحنى المصلي للركوع ، واستقر لحظة يسيرة ، وسكنت أعضاؤه عن الحركة : فقد أتى بالطمأنينة [80].

8- تذكر الموت في الصلاة : لقوله صلى الله عليه وسلم : «اذكر الموت في صلاتك، فإن الرجل إذا ذكر الموت في صلاته لحري أن يحسن صلاته، وصل صلاة رجل لا يظن أنه يصلي غيرها»

80- عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رَسولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ دَخَلَ المَسْجِدَ فَدَخَلَ رَجُلٌ، فَصَلَّى، فَسَلَّمَ علَى النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فَرَدَّ وقالَ: ارْجِعْ فَصَلِّ، فإنَّكَ لَمْ تُصَلِّ، فَرَجَعَ يُصَلِّي كما صَلَّى، ثُمَّ جَاءَ، فَسَلَّمَ علَى النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فَقالَ: ارْجِعْ فَصَلِّ، فإنَّكَ لَمْ تُصَلِّ ثَلَاثًا، فَقالَ: والذي بَعَثَكَ بالحَقِّ ما أُحْسِنُ غَيْرَهُ، فَعَلِّمْنِي، فَقالَ: (إذَا قُمْتَ إلى الصَّلَاةِ فَكَبِّرْ، ثُمَّ اقْرَأْ ما تَيَسَّرَ معكَ مِنَ القُرْآنِ، ثُمَّ ارْكَعْ حتَّى تَطْمَئِنَّ رَاكِعًا، ثُمَّ ارْفَعْ حتَّى تَعْدِلَ قَائِمًا، ثُمَّ اسْجُدْ حتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ ارْفَعْ حتَّى تَطْمَئِنَّ جَالِسًا، و افْعَلْ ذلكَ في صَلَاتِكَ كُلِّهَا). رواه البخاري .

9- تدبر الآيات المقروءة وبقية أذكار الصلاة والتفاعل معها: ولا يحصل التدبر إلا بالعلم بمعنى ما يقرأ فيستطيع التفكر فينتج الدمع والتأثر قال الله تعالى: (والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا) [الفرقان:73] .

ومما يعين على التدبر التفاعل مع الآيات بالتسبيح عند المرور بآيات التسبيح و التعوذ عند المرور بآيات التعوذ..وهكذا. ومن التجاوب مع الآيات التأمين بعد الفاتحة وفيه أجر عظيم، **قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إذا أَمَّنَ الإمام فأمِّنوا فإنه مَنْ و افقَ تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه)** [رواه البخاري] .

وكذلك التجاوب مع الإمام في قوله سمع الله لمن حمده، فيقول المأموم: ربنا ولك الحمد وفيه أجر عظيم أيضا.

* * *   * * * *   * * *

10- أن يقطِّع قراءته آية آية : وذلك أدعى للفهم والتدبروهي سنة النبي صلى الله عليه وسلم ، فكانت قراءته مفسَّرة حرفا حرفا. وتمام ذلك بترتيل القراءة وتحسين الصوت بها لقوله تعالى: { ورتل القرآن ترتيلا } [المزمل:4]، ولقوله صلى الله عليه وسلم: «زينوا القرآن بأصوا تكم فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حسنا» [أخرجه الحاكم].

11- أن يعلم أن الله يجيبه في صلاته : قال صلى الله عليه وسلم : «قال الله عز وجل قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل، فإذا قال: الحمد لله رب العالمين قال الله: حمدني عبدي فإذا قال: الرحمن الرحيم، قال الله: أثنى علي عبدي، فإذا قال: مالك يوم الدين، قال الله: مجدني عبدي، فإذا قال: إياك نعبد وإياك نستعين، قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل، فإذا قال: إهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، قال الله: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل» .

12- الصلاة إلى سترة والدنو منها : من الأمور المفيدة لتحصيل الخشوع في الصلاة الاهتمام بالسترة والصلاة إليها، وللدنو من السترة فوائد منها: كف البصر عما وراءه، و منع من يجتاز بقربه... و منع الشيطان من المرور أو التعرض لإفساد الصلاة قال عليه الصلاة والسلام : «إذا صلى أحدكم إلى سترة فليدن منها حتى لا يقطع الشيطان عليه صلاته» [رواه أبو داود].

13- وضع اليمنى على اليسرى على الصدر: كان النبي عليه الصلاة والسلام إذا قام في الصلاة وضع يده اليمنى على اليسرى وكان يضعهما على الصدر، و الحكمة في هذه الهيئة أنها صفة السائل الذليل وهو أمنع من العبث و أقرب إلى الخشوع.

14- النظر إلى موضع السجود : لما ورد عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلى طأطأ رأسه و رمى ببصره نحو الأرض، أما إذا جلس للتشهد فإنه ينظر إلى أصبعه المشيرة وهو يحركها كما صح عنه .

* * *   * * * *   * * *

15- تحريك السبابة : قال النبي صلى الله عليه وسلم :(لهي أشد على الشيطان من الحديد) [81]، والإشارة بالسبابة تذكر العبد بوحدانية الله تعالى والإخلاص في العبادة وهذا أعظم شيء يكرهه الشيطان نعوذ بالله منه.

16- التنويع في السور والآيات والأذكار والأدعية في الصلاة : وهذا يشعر المصلي بتجدد المعاني، ويفيده ورود المضامين المتعددة للآيات والأذكار فالتنويع من السنة و أكمل في الخشوع.

17- أن يأتي بسجود التلاوة إذا مر بموضعه : قال تعالى: {ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا} [الإسراء:109]، وقال تعالى : {إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا} [مريم:58]،

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد، اعتزل الشيطان يبكي، يقول: يا ويلي، أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار» [رواه مسلم].

18 - الاستعاذة بالله من الشيطان: الشيطان عدو لنا ومن عداوته قيامه بالوسوسة للمصلي كي يذهب خشوعه ويلبس عليه صلاته. و الشيطان بمنزلة قاطع الطريق، كلما أراد العبد السير إلى الله تعالى، أراد قطع الطريق عليه.

فينبغي للعبد أن يثبت و يصبر، ويلازم ماهو فيه من الذكر و الصلاة و لا يضجر فإنه بملازمة ذلك ينصرف عنه كيد الشيطان :**(إن كيد الشيطان كان ضعيفا)** [النساء:76].

81- الحديث حسنه الألباني في صفة صلاة النبي صلى الله عليه وسلم - ص (159) .

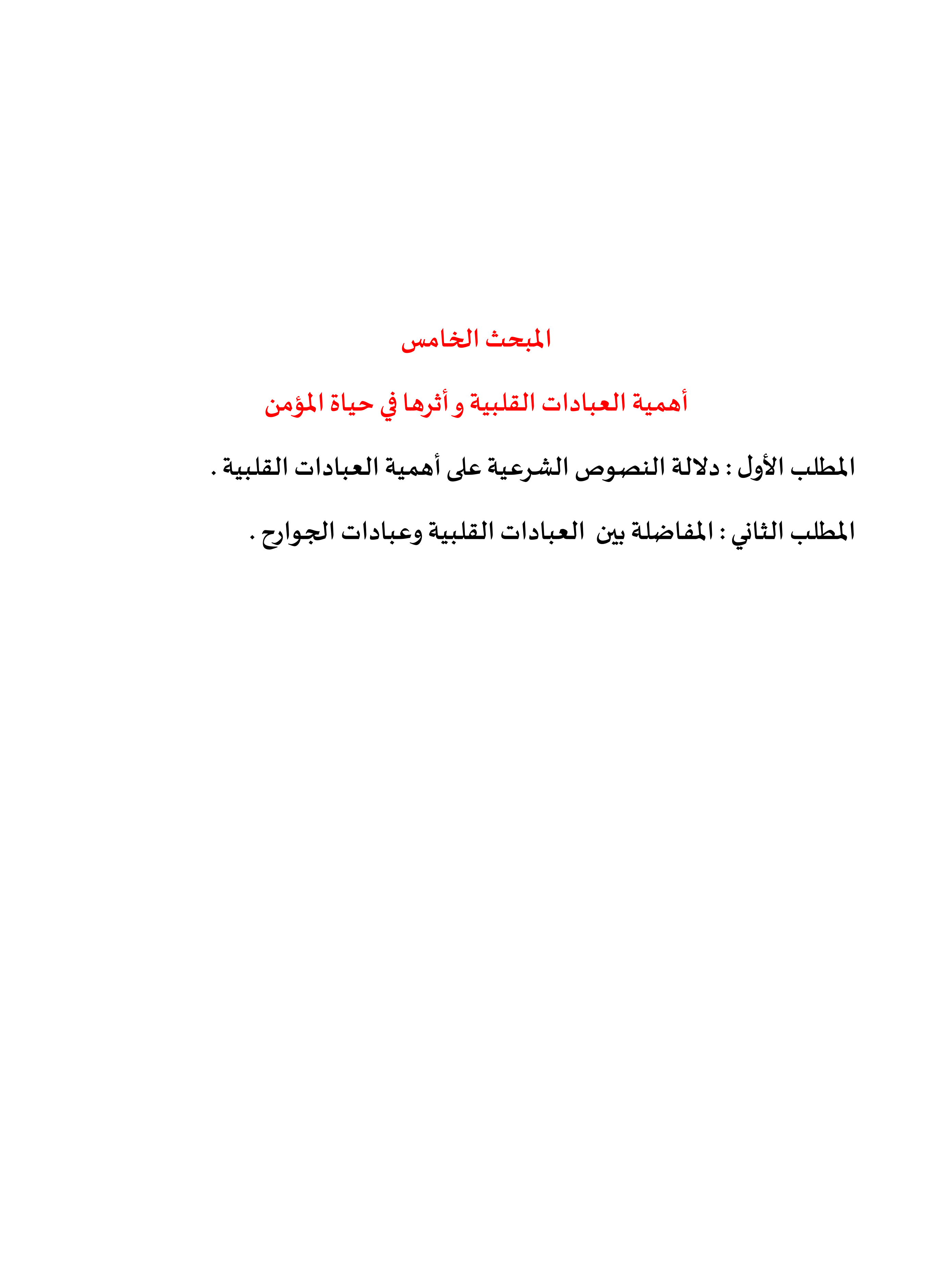
19 - التأمل في حال السلف في صلاتهم : كان علي بن أبي طالب إذا حضرت الصلاة يتزلزل و يتلون وجهه، فقيل له: ما لك؟ فيقول: جاء والله وقت أمانة عرضها الله على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها و أشفقن منها و حملتها. و كان سعيد التنوخي إذا صلى لم تنقطع الدموع من خديه على لحيته.

20 - إزالة ما يشغل المصلي من المكان : عن أنس رضي الله عنه قال: كان قرام - ستر فيه نقش وقيل ثوب ملون - لعائشة رضي الله عنها سترت به جانب بيتها، فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم : (أميطي - أزيلي - عني فإنه لا تزال تصاويره تعرض لي في صلاتي) [رواه البخاري] .

ختاماً : جاءني أحد الإخوة الملتزمين وقال لي : قبل أيام أذّن المؤذن لصلاة الظهر فتوضأت بعد الأذان مباشرة وخرجت إلى الصلاة فصليتُ أربع ركعات فوجدت فيها لذة وحلاوة للصلاة لم أذق مثلها في حياتي وهكذا في الفريضة ففرحتُ بذلك ثم خرجت في اليوم الثاني مبكراً في نفس الموعد وصليت أيضاً أربع ركعات قبل الفريضة ، ولكني لم أجد تلك اللذة التي وجدتها في اليوم الأول ، فلماذا حدث معي هذا ؟

فأجبته على الفور: لأنك في اليوم الأول خرجت لله أما في اليوم الثاني فخرجت لتجد تلك اللذة، فرضي مني ذلك الجواب . والله أعلم

*** * * * * ***



المبحث الخامس

أهمية العبادات القلبية و أثرها في حياة المؤمن

المطلب الأول : دلالة النصوص الشرعية على أهمية العبادات القلبية .

المطلب الثاني : المفاضلة بين العبادات القلبية وعبادات الجوارح .

المطلب الأول

دلالة النصوص الشرعية على أهمية العبادات القلبية

العبادات القلبية : هي أعمال القلوب كالمحبة والشوق والخوف والرجاء والإخلاص والصدق والخشوع والخضوع والتضرع والتواضع وغيرها.

هذا : ولقد اهتم العلماء قديما وحديثا بأعمال القلوب فألفوا فيها المؤلفات فلا يخفى على مسلم ما كتبه الغزالي والهروي و ابن القيم و ابن تيمية وما ذلك إلى لكثرة الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي حثت على الاهتمام بأعمال القلب ، ولا بأس من التذكير ببعضها :

جاء في الحديث الصحيح (ألا وإنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ) رواه البخاري ومسلم.

وهذا يعني أن هذا الدين إنما نزل في حقيقته لتزكية القلوب وإصلاحها، ولهذا يقول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **(أنا دَعْوَةُ أبي إِبْرَاهِيمَ)** رواه أحمد .

ودعوة أبينا إبراهيم هي ما في قوله تعالى: (رَبَّنَا وَ ابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ) [البقرة:129] فإبراهيم عليه السلام دعا الله لما بنى هذا البيت العظيم "العتيق" أن يبعث في هذه الأمة هذا الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبهذه الأهداف والأغراض.

وقد استجاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى دعوة إبراهيم عليه السلام كما في قوله تعالى: (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ) [الجمعة:2].

فنلاحظ هنا أن هذه الأمور الثلاثة المدعو بها اختلف ترتيبها بين موضعها في الجمعة وفي البقرة ، فتقدمت التزكية على التعليم، ولا شك أن الإنسان لا يمكن أن يتزكى إلا بأن يتعلم الكتاب والسنة، فيتعلم الهدى الذي جاء به النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لكن عندما تتقدم التزكية فهي من باب تقديم الغرض والغاية على الوسيلة التي تؤدي إلى هذه الغاية. فالأصل هي: تزكية هذه القلوب التي هي موضع نظر الله من العبد كما في الحديث: **(إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ)** رواه مسلم.

*** * * * * ***

وهذه القلوب هي محل الابتلاء والتمحيص ومحل الأعمال التي لو استعرضناها؛ لعجبتم ولعلمتم أن لهذه القلوب شأناً عظيماً عند الله تبارك وتعالى، كيف لا والقلب هو الذي إذا كان حياً فإن الجسد يحيا معه، وإذا مات مات الجسد [82].

ومع ذلك ستجد فئاماً من المسلمين يظن أن أعمال القلوب من فضائل الأعمال ومستحباتها، فمن قام بها فله أجر ومثوبة، ومن قصر فيها فلا شيء عليه ، وهذا مما يبين لنا سبب التقصير والخلل عند كثير من الناس في تعلم أعمال القلوب وتكميلها والقيام بها، كما يسعى أحدهم في تعلم وتكميل والقيام بأعمال الجوارح.

ولكي يتبين لنا أهمية أعمال القلوب في حياة المسلم؛ سأذكرها بعون الله في عدة نقاط :

1 - أعمال القلوب واجبة على كل مسلم [83]: كما تجب عليه أعمال الجوارح، بل إن أعمال القلوب أشد وجوباً من أعمال الجوارح وآكد منها.

82- أهمية أعمال القلوب - (للشيخ : سفر الحوالي) – محاضرات مفرغة - موقع إسلام ويب – بتصرف .

83- الطاعات القلبية منها ما هو واجب باتفاق العلماء، ومنها ما هو مستحب، ومنها ما اختلف في وجوبه. ويبين شيخ الإسلام ابن تيمية بعض ما اتفق على وجوبه، فيقول: "أعمال القلوب هي من أصول الإيمان، وقواعد الدين، مثل محبة الله ورسوله، والتوكل عليه، وإخلاص الدين له، والشكر له، والصبر على حكمه، والخوف منه، والرجاء له وما يتبع ذلك، فهذه الأعمال جميعًا واجبة على جميع الخلق باتفاق أئمة الدين" (مجموع الفتاوى).

ويصف رحمه الله الظن بأنها من المستحبات بأنه ضلال مبين فيقول: "وتظن طائفة أن التوكل إنما هو من مقامات الخاصة، المتقربين إلى الله بالنو افل، وكذلك قولهم في أعمال القلوب وتو ابعها، من الحب والرجاء والخوف والشكرونحوه، وهذا ضلال مبين، بل جميع هذه الأمورفرض على الأعيان، باتفاق أهل الإيمان" (مختصرالفتاوى المصرية).

وقد حكى ابن القيم اتفاق الأمة على وجوب الأعمال السابقة من حيث الجملة، وزاد علها الصدق، والإنابة والنية في العبادة، والنصح في العبودية، ثم قال رحمه الله: "وكذلك كل واحد من هذه الواجبات القلبية له طرفان واجب مستحق، وهو مرتبة أصحاب اليمين، وكمال مستحب، وهو مرتبة المقربين" (مدارج السالكين).

وقد يقال: فما الذي يميز الواجب المستحق من العمل القلبي عن الكمال المستحب؟

والجواب عن ذلك يتضح بما ذكره ابن رجب في شأن محبة الله، عزوجل وهي رأس الأعمال القلبية، حيث جعلها على درجتين: الأولى: فرض لازم، وهي المحبة التي توجب للعبد محبة ما فرض عليه، وبغض ما حرم عليه، ومحبة رسوله، وتقديم محبته على النفوس والأهلين، ومحبة ما جاء به، ومحبة سائر الرسل والأنبياء والصالحين، وبغض الكفاروالفجار في الله، ومقتضى تلك المحبة الواجبة أن يفعل العبد الواجبات، ويترك المحرمات، ومتى أخل بشيء من ذلك فمحبته لربه غير تامة، فعليه المبادرة للتوبة، والاجتهاد في تكميل المحبة. الثانية: درجة السابقين المقربين، وهي أن ترتقي المحبة إلى محبة ما يحبه الله من النو افل، وكراهة ما يكرهه من دقائق المكروهات، والرضا بما يقدره مما يؤلم النفس من المصائب (انظر: استنشاق نسيم الأنس. اختيار الأولى). ويذكر ابن القيم أن هناك أعمالاً اختلف في وجوبها، مثل الرضا بالقضاء الكوني الجاري على خلاف مراد العبد ومحبته مما لا يلائمة ولا يدخل تحت اختياره، كالمرض، والفقروأذى الخلق له، مع الاتفاق على وجوب الرضا بالله ربًا وإلهًا، والرضا بأمره الديني .(عمل القلب - الفريضة الغائبة - [02] الطاعات القلبية: حكمها وأمثلتها – خالد أبو شادي- موقع طريق الإسلام).

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى : فواجبات القلوب أشد وجوباً من واجبات الأبدان وآكد منها، وكأنها ليست من واجبات الدين عند كثير من الناس يظنون، بل هي من باب الفضائل والمستحبات ، فتراه يتحرَّج من تركِ واجب من واجبات الأبدان، وقد ترك ما هو أهمّ واجبات القلوب و أفْرَضها، ويتحرج من فعل أدنى المحرمات، وقد ارتكب من محرمات القلوب ما هو أشد تحريماً وأعظم إثماً [84].

قلت : ومن أمثلة ذلك أن البعض قد يترك بعض المال الذي فيه شبهة ويسأل العلماء خوفا من الحرام ولكنه في نفس الوقت يتكبر على خلق الله تعالى ، ولو وُزِّع الكبر الذي في قلبه على عشرة لوسعهم ولا يفكِّر في علاج هذا الداء العضال بسؤال العلماء عن العلاج الناجع .

* * *   * * * *   * * *

2 - قيام العبد بأعمال القلوب – بتوفيق الله – سبب للثواب، والتقصير والتفريط فيها قد يكون سبباً للعقاب في الدنيا والآخرة، كما هو الحال في أعمال الجوارح.

أما في الدنيا : فالثواب عليها يكون بقبول الطاعات، واستجابة الدعوات، والطمأنينة والفرح في القلب والتوفيق للحق والثبات عليه وغيرها ، وأما العقوبة فقد تكون حسية أو معنوية وذلك بعدم قبول الطاعات، أو حرمان التوفيق لها، والضيق والضنك في القلوب وغيرها.

يقول ابن الجوزي رحمه الله تعالى: وربما رأى العاصي سلامة بدنه وماله فظن أنه لا عقوبة، وغلفته عما عوقب به عقوبة. أي العقوبة المعنوية كالحرمان من الخشوع .

وقد قال الحكماء : المعصية بعد المعصية عقاب المعصية، والحسنة بعد الحسنة ثواب الحسنة. وربما كان العقاب العاجل معنوياً، كما قال بعض أحبار بني إسرائيل: يا ربّ كم أعصيك ولا تعاقبني؟ قيل له: كم أعاقبك ولا تدري، أليس قد حرمتك حلاوة مناجاتي؟ [85] .

وأما في الآخرة : فإن الله تعالى يقول: (أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ* وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ)، ويقول جل شأنه: (يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ) أي: تختبر سرائر الصدور، ويظهر ما كان في القلوب من خير وشر على صفحات الوجوه قال تعالى: (يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ) ففي الدنيا، تنكتم

84- السابق .

85- صيد الخاطر- ص(84) - تحقيق أبي أنس سيد بن رجب.

كثير من الأمور، ولا تظهر عيانًا للناس، وأما في القيامة، فيظهر بر الأبرار، وفجور الفجار، وتصير الأمور علانية[86].

* * *   *   *   *   *   * * *

3 - العبادات القلبية هي الأصل : والعبادات البدنية تبع ومكملة لها؛ إذ إن العبادات القلبية روح العبادات البدنية.

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى مبيّناً أهمية أعمال القلوب في حديثه عن النية وأهميتها : وإنما هي الأصل المراد المقصود، وأعمال الجوارح تبعٌ ومكملة ومُتممةٌ، وإن النية بمنزلة الروح، والعمل بمنزلة الجسد والأعضاء، الذي إذا فارق الروح فموات، وكذلك العمل إذا لم تصحبه النية فحركة عابث. فمعرفة أحكام القلوب أهم من معرفة أحكام الجوارح؛ إذ هي أصلها، وأحكام الجوارح متفرعة عليها [87].

إن لذة العبادة والطمأنينة فيها والأُنس بها وقرة العين، وراحة النفس و انشراح الصدر لا تكون إلا بتحقيق أعمال القلوب أثناء القيام بتلك العبادة؛ لأن أعمال القلوب هي روح أعمال الجوارح، وبالروح تكون اللذة والطمأنينة والأنس، وإن فارقتها فأعمال الجوارح موات لا روح فيها ولا لذة وطمأنينة ولا أنس.

* * *   *   *   *   *   * * *

4 - تفاضل العباد عند الله تعالى بتفاضل ما في قلوبهم من أعمال القلوب : قال تعالى: (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) ، وأصل التقوى عمل القلب، قال صلى الله عليه وسلم: (التقوى هاهنا) ويشير إلى صدره ثلاث مرات. رواه مسلم .

و قال صلى الله عليه وسلم: (إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم).رواه مسلم .

ويقول ابن مسعود رضي الله عنه في وصف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا أفضل هذه الأمة، أبرها قلوبا...) [88].

86- تفسير السعدي .

87- بدائع الفوائد - (1140/3).

88- شرح العقيدة الطحاوية ص(546) .

وقال أبو بكر المزني رحمه الله تعالى: (ما فاق أبو بكر رضي الله عنه أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم بصوم ولا صلاة، ولكن بشيء كان في قلبه) [89].

وسيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه رغم أن إسلامه كان متأخراً بالنسبة للعشرة المبشرين بالجنة؛ إذ كان إسلامه في السنة السادسة من البعثة إلا أنه تقدم على غيره سوى أبي بكر الصديق، وقد أفاد شيخ الإسلام عن ذلك بقوله: وكان عمر لكونه أكمل إيماناً وإخلاصاً وصدقاً ومعرفة وفارسة ونوراً أبعد عن هوى النفس وأعلى همة في إقامة دين الله، مقدماً على سائر المسلمين غير أبي بكر رضي الله عنهم أجمعين [90].

5 - تفاضل أعمال العباد عند الله جل وعلا بتفاضل ما في قلوبهم من أعمال القلوب : فقد يعمل الرجلان عملاً واحداً، والفرق بين عمليهما عند الله كما بين السماء والأرض، لتفاضل ما في قلبيهما من أعمال القلوب.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: فإن الأعمال تتفاضل بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والإخلاص، وإن الرجلين ليكون مقامهما في الصف واحداً، وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض [91].

ويقول ابن القيم رحمه الله تعالى : والله يضاعف ذلك بحسب حال المنفق و إيمانه وإخلاصه وإحسانه، ونفع نفقته وقدرها، ووقوعها موقعها، فإن ثواب الإنفاق يتفاوت بحسب ما يقوم بالقلب من الإيمان والإخلاص والتثبيت عند النفقة [92] .

6 - القلب كالملك والجوارح كالجنود التابعة له : فبصلاح القلب تصلح الجوارح بالعمل الصالح، وبفساد القلب تفسد الجوارح بالمعاصي ، قال صلى الله عليه وسلم: (ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب) متفق عليه .

* * *   * * * *   * * *

89- السابق .

90- مجموع الفتاوى (304/10).

91- مهاج السنة (222-221/6).

92- أعلام الموقعين (238/1).

المطلب الثاني

المفاضلة بين العبادات القلبية وعبادات الجوارح

لعله قد تبين مما سبق أن أعمال القلب من الأهمية بمكان وأن أعمال الجوارح تبعٌ ومكملة ومُتممةٌ لأداء العبادات ولكي تكتمل صورة العلاقة بين عبادتيهما أحببت بيان أفضلية أعمال القلب على أعمال الجوارح وذلك من وجوه متعددة[93]:

الأول : أن العبادات القلبية هي الأصل وأن أعمال الجوارح فرع عنها : ومعلوم من أصول أهل السنة والجماعة : أن الإيمان: قول وعمل، قول القلب واللسان، وعمل القلب والجوارح. فالقلب يصدق، واللسان يشهد، والقلب يعمل عمله من توكل، ومحبة،وإخبات.. وما إلى ذلك واللسان يعمل : ذكرٍ، وقراءة للقرآن، وقولاً للحق، والجوارح : تسجد وتركع، وتعمل الصالحات التي تقرب إلى الله عز وجل.

فعمل القلب هو الأصل، فلو انتفى التصديق الانقيادي، والإقرار من القلب ماذا يحصل؟ لا يقبل عمل من أعمال الإنسان البتة، يقول ابن القيم رحمه الله ':أعمال القلوب هي الأصل المراد المقصود، وأعمال الجوارح تبعٌ ومكملة، ومتممة' يقول ': وأما النية فبمنزلة الروح، والعمل بمنزلة الجسد للأعضاء الذي إذا فارق الروح كمواتها.

وكذلك العمل إذا لم تصحبه النية، فحركة عابث، فمعرفة أحكام القلوب أهم من معرفة أحكام الجوارح؛ إذ هي أصلها وأحكام الجوارح متفرعة عنها[94].

* * *   *   *   *   *   * * *

الثاني : اختلال العبادات القلبية لربما أوقع في الرياء؛ فإن إيمانه يختل، وذلك العمل الذي خالطه الرياء يكون باطلاً؛ فالله طيب لا يقبل طيباً **هدم العبادات التي تتعلق بالجوارح :**

93- أهمية الأعمال القلبية والمفاضلة بينها وبين أعمال الجوارح - الشيخ / خالد بن عثمان السبت – موقع معرفة الله – بتصرف .

94- بدائع الفوائد - (224/3). وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية كلاماٍيشبه هذا: [انظر الفتاوي 5/10 -6 و15، 355، شرح حديث:[يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي] ص 45]،وكذا ذكره ابن القيم في مواضع من كتبه : [انظر بدائعالفوائد 230/3 الصلاة ص 54، المدارج 101/1] .لأن أصل الدين هو الأمور الباطنة، ويكفي هذا في بيانالمعنى .

ومن أمثلة ذلك: الإخلاص : وهو عمل قلبي، فإذا زال الإخلاص من قلب العبد، فوقع في الشرك، أو إذا وقع في النفاق الأكبر؛ فإن إيمانه يضمحل، وإذا ، **كما قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: (أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنْ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ)** رواه مسلم .

فالله لا يقبل هذه الأعمال التي يخالطها الإشراك: سواء كان ذلك في أول العمل من أوله، أو كان في أثنائه واسترسل العبد معه، فإن ذلك يبطل العمل في هاتين الصورتين، فصارت عبادة العبد الظاهرة: كالركوع، والسجود، أو الصلاة، أو الصيام، أو غير ذلك صار ليس له منها إلا التعب، ثم يعاقب عليها؛ لأنه صرفها لغير الله عز وجل .

مثال آخر من الأعمال القلبية :التواضع : وهو عمل قلبي يظهر أثره على الجوارح، ما الذي يبطله ويفسده؟ الكبر، والكبر هو تعاظم في القلب يظهر أثره على جوارح الإنسان، فهذا يدل على اختلال عبادة التواضع- وهي عبادة قلبية- لداء الكبر، ومعلوم أن الكبر مانع من دخول الجنة .

*** * * * * ***

الثالث : الأعمال القلبية أساس النجاة من النار والفوز بالجنة : كالتوحيد فهو عبادة قلبية محضة، وسلامة الصدر للمسلمين عبادة قلبية، وقد أثنى الله تعالى على خليله إبراهيم - عليه السلام - بسلامة القلب فقال: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ * إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات: 83، 84]. **وقال حاكيًا عنه: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾** [الشعراء: 88، 89]، **والقلب السليم - كما قال ابن القيم - هو الذى سلم من الشرك والغل والحقد والحسد والشح والكبر وحب الدنيا والرياسة، فسلم من كل آفة تبعده عن الله، وسلم من كل شبهة تعارض خبره، ومن كل شهوة تعارض أمره وسلم من كل إرادة تزاحم مراده، وسلم من كل قاطع يقطعه عن الله، فهذا القلب السليم في جنة معجلة في الدنيا وفى جنة في البرزخ وفى جنة يوم المعاد[95].**

وعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : كُنَّا جُلُوسًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : (يَطْلُعُ عَلَيْكُمْ الْآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ) ، فَطَلَعَ رَجُلٌ مِنْ الْأَنْصَارِ تَنْطِفُ لِحْيَتُهُ مِنْ وُضُوئِهِ قَدْ تَعَلَّقَ نَعْلَيْهِ فِي يَدِهِ الشِّمَالِ فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِثْلَ ذَلِكَ فَطَلَعَ ذَلِكَ الرَّجُلُ مِثْلَ الْمَرَّةِ الْأُولَى فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الثَّالِثُ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِثْلَ مَقَالَتِهِ أَيْضًا فَطَلَعَ ذَلِكَ الرَّجُلُ عَلَى مِثْلِ حَالِهِ الْأُولَى فَلَمَّا قَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَبِعَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ

95- الداء والدواء - لابن القيم - ص (165-166).

فَقَالَ إِنِّي لَاحَيْتُ أَبِي فَأَقْسَمْتُ أَنْ لَا أَدْخُلَ عَلَيْهِ ثَلَاثًا فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تُؤْوِيَنِي إِلَيْكَ حَتَّى تَمْضِيَ فَعَلْتَ قَالَ نَعَمْ.

قَالَ أَنَسٌ رضي الله عنه وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ يُحَدِّثُ أَنَّهُ بَاتَ مَعَهُ تِلْكَ اللَّيَالِي الثَّلَاثَ فَلَمْ يَرَهُ يَقُومُ مِنْ اللَّيْلِ شَيْئًا غَيْرَ أَنَّهُ إِذَا تَعَارَّ وَتَقَلَّبَ عَلَى فِرَاشِهِ ذَكَرَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ ، قَالَ عَبْدُ اللهِ: فَلَمَّا مَضَتْ الثَّلَاثُ لَيَالٍ وَكِدْتُ أَنْ أَحْتَقِرَ عَمَلَهُ قُلْتُ يَا عَبْدَ اللَّهِ إِنِّي لَمْ يَكُنْ بَيْنِي وَبَيْنَ أَبِي غَضَبٌ وَلَا هَجْرٌ ثَمَّ وَلَكِنْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ لَكَ ثَلَاثَ مِرَارٍ: (يَطْلُعُ عَلَيْكُمْ الْآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ) فَطَلَعْتَ أَنْتَ الثَّلَاثَ مِرَارٍ فَأَرَدْتُ أَنْ آوِيَ إِلَيْكَ لِأَنْظُرَ مَا عَمَلُكَ فَأَقْتَدِيَ بِهِ فَلَمْ أَرَكَ تَعْمَلُ كَثِيرَ عَمَلٍ فَمَا الَّذِي بَلَغَ بِكَ مَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ : (مَا هُوَ إِلَّا مَا رَأَيْتَ غَيْرَ أَنِّي لَا أَجِدُ فِي نَفْسِي لِأَحَدٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ غِشًّا وَلَا أَحْسُدُ أَحَدًا عَلَى خَيْرٍ أَعْطَاهُ اللَّهُ إِيَّاهُ) ؟ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ : هَذِهِ الَّتِي بَلَغَتْ بِكَ وَهِيَ الَّتِي لَا نُطِيقُ) رواه أحمد وابن حبان والبزار والبيهقي في الشعب [96] .

* * *   *   *   *   *   * * *

الرابع : العبادات القلبية سبب في نيل المراتب العالية في الجنة: فالحب في الله عبادة قلبية محضة، وقد صح من حديث ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:(إِنَّ لله جُلَسَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ يَمِينِ الْعَرْشِ وَكِلْتَا يَدَي الله يَمِينٌ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ وُجُوهُهُمْ مِنْ نُورٍ لَيْسُوا

96- شبهتان حول الحديث والجواب عنهما : أعلَّ بعض المتأخرين هذا الحديث بأمور؛ منها:

1- أن هذا الصحابي عبدالله رضي الله عنه قد كذَب على هذا الرجل المُبشَّر في زعمه أن بينه وبين والده خصومةً؛ حتى يُدخله بيته، وهذا غيرُ وارد في حق الصحابة.

و أقول: ليس في هذه القصة أن هذا الصحابيَّ رضي الله عنه قد كَذبَ أو تعمَّد الكذب، إلا أن الظنَّ بهم هو استعمالهم للتورية والمعاريض كما هو معروف، ومعنى ذلك هنا: أنه ربما لاحى أباه ظاهرًا فقط، من غير قصدٍ أو خصومةٍ حقيقيَّة، ففعل ذلك لأجل المصلحة ومعرفةِ حال الرجل؛ للاقتداء به، كما أنه أقسَم فعلاً ألاَّ يدخلَ على والده تلك الأيام، وقد برَّ بقَسَمِه وما كذب، فإنه لم يَبِتْ عنده تلك الأيامَ الثلاث، بل باتها عند ذلك المبشَّر بالجنة، بعد أن أخبره بالخصومة الصوريَّة لا الحقيقية.

وهذه من المعاريض التي كان الصحابةُ والسلف يفعلونها للمصلحة، وقد وردت الأحاديثُ بجوازها، هذا هو الظنُّ بهم رضي الله عنهم.

2- وأعل بعضهم الحديثَ بقول الرجل: "غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غشًّا، ولا أحسد أحدًا على خيرٍ أعطاه الله إيَّاه، قال عبدالله: هذه التي بلغَتْ بك، وهي التي لا تُطاقُ".

ففهموا منها أن الصحابةَ يَحسُدون ويَغشُّون، وهذا فَهْمٌ باطل، وليس في الحديث أن الصحابةَ فيهم هذه الصفات السلبيَّة، بل كل ما فيه أن هذا الصحابيَّ قد فاق غيرَه من الصحابة في تحقيق كمال هذه الصفة الحميدة، وهو ما لم يُطِقْه غيرُه، وقد تفاوتَ الصحابة والمسلمون في الإيمان، وربَّ رجلٍ فاق غيرَه في صفةٍ، وقد فاقه غيرُه في صفاتٍ أخرى، ولا يعني ذلك: أن مَن فاق في صفة فهي معدومة في غيره، وهذا أمرٌجِدُّ واضح. (مقال : رجل من أهل الجنة – للأستاذ طاهر رباني – شبكة الألوكة).

بِأَنْبِيَاءَ وَلَا شُهَدَاءَ وَلَا صِدِّيقِينَ) قِيلَ يَا رَسُولَ الله مَنْ هُمْ قَالَ: (هُمْ الْمُتَحَابُّونَ بِجَلَالِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى) [97].

وهكذا أيضاً الأخلاق الحسنة : الحياء، والصبر، وما إلى ذلك من الأخلاق الطيبة الكاملة،

فَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (مَا شَيْءٌ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ) [98].

وَعَنْ جَابِرٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَ أَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلَاقًا) رواه الترمذي وقال: حَسَنٌ غَرِيبٌ.

الخامس : العبادات القلبية أشق من عبادات الجوارح : ويكفي المثال الذي ذكرناه قبل قليل في تصفية القلب وتنقيته من الغل للمسلمين.

يقول يونس بن عبيد رحمه الله - وقد كتب إليه أحد إخوانه يسأله عن مسائل فقال يونس- :أتاني كتابك تسألني أن أكتب إليك بما أنا عليه - أرسل إليه رسالة يقول ما عملك ؟ - فيقول :أخبرك بأني عرضت على نفسي أن تحب للناس ما تحب لها، وتكره للناس ما تكره لها، فإذا هي عن ذلك بعيدة ثم عرضت عليها مرة أخرى ترك ذكرهم إلا من خير لا أذكرهم لا أتكلم بهم بسوء ، يقول :فوجدت الصوم في اليوم الحار أيسر عليها من ذلك ؟ .

فهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن الإنسان له لذة جامحة في الكلام في أعراض المسلمين، فهذا يدل على أن الإنسان يحتاج إلى كبح قوي لهذه النفس، ولهذه الرغبة الجامعة المسيطرة على النفس، وما يفسد علينا أمرنا في هذا الباب إلا كثرة التأويلات، هذه المرة المقصود كذا والمقصود كذا، ثم نقع فيما حرم الله عز وجل من الغيبة - يقول: هذا أمري يا أخي والسلام .99

يقول: أنا في مكابدة، وهذا يدل على أن العبادات القلبية شاقة .

***　　* * * *　　***

السادس : العبادات القلبية أجمل أثراًمن عبادات الجوارح بل هي مجملةلعبادات الجوارح:
فعبادات الجوارح على غاية الأهمية وهذا أمر لا ينازع فيه، لكن عبادات القلب أحلى وأوقع وأجمل أثراً وهذا ما يجده الإنسان في نفسه - إن كان قلبه موصولاًبالله عز وجل - كان بعض

97- رواه الطبراني في الكبير134/12 وقال الهيثمي في 'المجمع' 277/10 بعد عزوه له: ورجاله وثقوا .

98- رواه أبوداود وأحمد الترمذي وقال : حَسَنٌ صَحِيحٌ .

99- نزهة الفضلاء - (539/1) .

السلف يقول : مساكين أهل الدنيا خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها، قالوا:وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله والأنس به والشوق إلى لقائه والإقبال عليه والإعراض عما سواه [100].

السابع : العبادات القلبية أعظم من عبادات الجوارح أجراًعند الله عز وجل ومثوبة : وقد كان كثير من السلف يفضلون عبادات القلب على الإكثار من عبادة الجوارح، مع عدم إهمالهم لعبادات الجوارح، كان أبو الدرداء رضي الله تعالى عنه يقول: تفكر ساعة خير من قيام ليلة [101]. و قيل لأم الدرداء رضي الله عنها: أي عبادة أبي الدرداء أكثر ؟ قالت: التفكر والاعتبار.أي أن يكون الإنسان دائم الفكرة .

ووصف لسعيد بن مسيب رحمه الله عبادة قوم أنهم يصلون بعد الظهر إلى العصر قال : (إنما العبادة التفكر في أمر الله، والكف عن محارم الله) .

وهو لا يقصد أن يزهد في صلاة النافلة، وإنما أراد أن يلفت أنظارهم إلى عبادة يغفلون كثيراً عنها وهي : التفكر .

* * *   * * * *   * * *

الثامن : أن العبادات القلبية محركة ودافعة للجوارح : إذ كلما عظم الإيمان، والتوحيد، ومحبة الله في القلب؛ كلما كان ذلك دافعاًللجوارح للعبادة .. يقول عتبة الغلام : من عرف الله؛ أحبه، ومن أحبه؛ أطاعه . فإذا وجد الإقبال والمحبة في قلب العبد؛ أقبلت جوارح العبد، وهان عليها التعب في الطاعة والعبادة .

* * *   * * * *   * * *

التاسع : العبادات القلبية تعظم عبادات الجوارح : ومعلوم أن الواحد قد يعمل عملاً من الأعمال، ويعمله آخر كما عمله هذا - من حيث الظاهر - فهذا تصدق بمائة، وهذا تصدق بمائة، وبينهما كما بين السماء والأرض، فقد يتصدق الإنسان وهو يعد هذه الصدقة مغرماً ولربما أخرجها كارهاًمحرجاً وآخر: أخرجها رغبة لكنه أخرجها وفي نفسه أنه مدل على ربه، وثالث: أخرجها وفي قلبه الحياء من الله والخوف منه , والإشفاق ألا تقبل، وأن هذا قليل من كثير مما أعطاه الله عز وجل، وأن الله هو الذي وفقه وهداه وسدده إلى هذه الصدقة والعمل الصالح، وأنه بحاجة للمزيد من العبودية ليشكر الله على هذا الإنعام أولاً وآخراً.. فبينهما من الفرق كما بين السماء والأرض !

100- تهذيب مدارج السالكين - ص (245) .

101- روضة العقلاء ونزهة الفضلاء - للعلامة محمد بن حبان البستي - (160/1) .

النية في طلب العلم : قد يطلب الإنسان العلم لدنيا، وقد يطلبه ليعرف ربه ومعبوده، ويتقرب إليه، فتكون له نية صحيحة، فكم بينهما من الفرق، والمجلس واحد،هما في مجلس واحد، في مكان واحد، ومع ذلك كم من الفرق بين هذا وهذا إنما كان ذلك بسبب النية ..يقول ابن المبارك رحمه الله': رب عمل صغير تكثره النية، ورب عمل كثير تصغره النية .

وهذا كما يقال في الطاعات يقال في المعاصي: قد يعمل رجلان معصية واحدة لكن هذا عملها وهو مستهتر، مستخف، متبجح، يتباهى بعملها، ويجاهر في ذلك، وكأنه ذباب جاء على وجهه فقال به هكذا .. وآخر يعمل معصية وهو خائف من الله، مستحٍ منه، يستشعر أن الله يراه ويراقبه، لكنه غلب بفترة ضعفت نفسه فيها، ثم لا يلبث أن يراجع .. فشتان بين هذا وهذا .

*** * * * * ***

العاشر: العبادات القلبية قد تكون في بعض الأحيان معوضة للعبد عن عبادات الجوارح ولا يوجد العكس :

ولنأخذ مثالاً على ذلك : الجهاد في سبيل الله عز وجل : يأتي رجال للنبي صلى الله عليه وسلم ليحملهم فيقول: لا أجد ما أحملكم عليه فيتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون، فهؤلاء كما قال النبي صلى الله عليه وسلم :(ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا شركوكم في الأجر) رواه مسلم وابن ماجة وأحمد .

لماذا؟ لأن العذر قد حبسهم، فالإنسان قد لا يستطيع أن يعمل بعض الأعمال، ولكنه يبلغ مبلغ العاملين لها بنيته، ولهذا يقول النبي صلى الله عليه وسلم : (من مات ولم يغز ولم يحدث به نفسه مات على شعبةٍ من نفاق) رواه مسلم.

فالنية لربما تكون معوضة عن عمل قد يعجز عنه الإنسان، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه) رواه مسلم .

*** * * * * ***

الحادي عشر: أعمال الجوارح كما ذكر ابن القيم رحمه الله - في مدارج السالكين - لها حد معلوم وأما أعمال القلوب لا حد لها بل تضاعف أضعافا: وذلك، لأن أعمال الجوارح مهما كثرت وعظمت لها وقت معلوم، الصلاة لها وقت، والصيام له وقت، والحج له وقت وله حد محدود .

أما العبادات القلبية فإنها تكون حالاًملازمة للعبد في صحوه ونومه، وصحته ومرضه، وصفائه وكدره، وفي جميع أموره .

ومن أمثلة ذلك المحبة : محبة الله عز وجل هل تفارق العبد؟ هل تفارق قلب العبد وهو قائم، أو قاعد، أو يمشي، أو مسافر، أو مقيم، وهو يأكل، أويتعبد أو غير ذلك؟ هي ملازمة له.

وكذا يقال في التعظيم والإخلاص والتفويض والتوكل والخوف والشوق إلى لقاء الله عز وجل ونحوها .

فإذا تمكنت هذه الأمور من قلب العبد، واستحكمت؛فإنها تكون حالاً ملازمة لهذا العبد، فلا تفارقه . وهذا يدل على شرف الأعمال القلبية على أعمال الجوارح فهي تنقطع وتنقضي .

* * *   * * * *   * * *

المبحث السادس

عبادات قلبية لتقوية الصلة بالله تعالى وبرسوله ﷺ وبالمؤمنين

المطلب الأول : عبادات قلبية لتقوية الصلة بالله وبرسوله ﷺ .

المحور الأول : محبة الله تعالى .

المحور الثاني : الشوق إلى لقاء الله تعالى .

المطلب الثاني : عبادات قلبية لتقوية الصلة بالمؤمنين .

المطلب الأول

عبادات قلبية لتقوية الصلة بالله وبرسوله ﷺ

مما هو معلوم أن أعمال القلوب كثيرة جدا [102] وليس من المناسب استقصاؤها في مثل هذه الرسالة الموجزة ولكن أحببت أن أذكر بعضها وهي أعمال لا بد منها لكل مؤمن سائر إلى الله تعالى سواء أكان من العامة والخاصة وذلك من خلال محورين :

المحور الأول : محبة الله تعالى : قال ابن جزي رحمه الله في تفسير قوله سبحانه: ﴿**والذين آمنوا أشد حبا لله**﴾: اعلم أن محبة العبد لربه على درجتين:

إحداهما : المحبة العامة التي لا يخلو منها كل مؤمن، وهي واجبة

والأخرى : المحبة الخاصة التي ينفرد بها العلماء الربانيون، والأولياء والأصفياء، وهي أعلى المقامات، وغاية المطلوبات، فإن سائر مقامات الصالحين كالخوف والرجاء والتوكل وغير ذلك هي مبنية على حظوظ النفس، ألا ترى أن الخائف إنما يخاف على نفسه، وأن الراجي إنما يرجو منفعة نفسه، بخلاف المحبة؛ فإنها من أجل المحبوب، فليست من المعاوضات.

*** * * * * ***

واعلم أن سبب محبة الله معرفته، فتقوى المحبة على قدر قوة المعرفة، وتضعف على قدر ضعف المعرفة، فإن الموجب للمحبة أحد أمرين أوكلاهما إذا اجتمعا، ولا شك أنهما في حق الله تعالى على غاية الكمال : **فالموجب الأول الحسن والجمال - والآخر الإحسان والإجمال.**

فأما الجمال : فهو محبوب بالطبع؛ فإن الإنسان بالضرورة يحب كل ما يستحسن، ولا جمال مثل جمال الله في حكمته البالغة وصنائعه البديعة، وصفاته الجميلة الساطعة الأنوار، التي تروق العقول وتهيج القلوب، وإنما يدرك جمال الله تعالى بالبصائر لا بالأبصار

وأما الإحسان : فقد جبلت القلوب على حب من أحسن إليها، وإحسان الله إلى عباده متواتر، وإنعامه عليهم باطن وظاهر، ﴿**وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها**﴾ [إبراهيم: 34] ويكفيك أنه

102- أجمع كتاب لهذه الأعمال القلبية هو كتاب منازل السائرين إلى الحق المبين - لشيخ الإسلام الهروي وهو كتاب مختصر جدا لا يتجاوز المائة صفحة ، وقد شرحه ابن القيم في كتابه الشهير مدارج السالكين في ثلاث مجلدات كبيرة ، كما شرحه المناوي والشرقاوي والتلمساني قديماً ، وشرحه بعض المعاصرين ولكن في محاضرات مسجلة في فيديوهات كالشيخ سيد محمد حاج والشيخ محمد راتب النابلسي والشيخ محمد حين يعقوب والشيخ محمد علي الشنقيطي ولم يكله فيما أعلم إلا الشيخ محمد سيد حاج رحمه الله ، وللعبد الضعيف شرح لما يتجاوز نصفه في محاضرات صوتية منشورة في موقع إسلام ويب .

يحسن إلى المطيع والعاصي، وإلى المؤمن والكافر، وكل إحسان ينسب إلى غيره فهو في الحقيقة منه، وهو المستحق للمحبة وحده.

واعلم أن محبة الله إذا تمكنت من القلب ظهرت آثارها على الجوارح من الجد في طاعته، والنشاط لخدمته، والحرص على مرضاته، والتلذذ بمناجاته، والرضا بقضائه، والشوق إلى لقائه، والأنس بذكره، والاستيحاش من غيره، والفرار من الناس، والانفراد في الخلوات، وخروج الدنيا من القلب، ومحبة كل من يحبه الله، وكل من يحب الله، وإيثار الله على كل من سواه .

قال الحارث المحاسبي رحمه الله تعالى : المحبة تسليمك إلى المحبوب بكليتك، ثم إيثارك له على نفسك وروحك، ثم موافقته سرا وجهرا، ثم علمك بتقصيرك في حبه [103].

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى : فحياتهم – يعني المحبين لله تعالى - هي الحياة الطيبة في الحقيقة، ولا حياة للعبد أطيب ولا أنعم ولا أهنأ منها. وهي الحياة الطيبة المذكورة في قوله تعالى: (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة) [النحل: 97].

ليس المراد منها الحياة المشتركة بين المؤمنين والكفار، والأبرار والفجار، من طيب المأكل والملبس والمشرب والمنكح؛ بل ربما زاد أعداء الله على أوليائه في ذلك أضعافا مضاعفة.

وقد ضمن الله سبحانه لكل من عمل صالحا أن يحييه حياة طيبة، فهو صادق الوعد الذي لا يخلف وعده.

وأي حياة أطيب من حياة من اجتمعت همومه كلها، وصارت هما واحدا في مرضاة الله، ولم شعث قلبه بالإقبال على الله، واجتمعت إراداته وأفكاره التي كانت منقسمة - بكل واد منها شعبة - على الله.

*** * * * * ***

فصار ذكر محبوبه الأعلى، وحبه، والشوق إلى لقائه، والأنس بقربه هو المستولي عليه. وعليه تدور همومه وإراداته وقصوده، بل خطرات قلبه. فإن سكت سكت بالله، وإن نطق نطق بالله. وإن سمع فبه يسمع، وإن أبصر فبه يبصر. وبه يبطش، وبه يمشي، وبه يتحرك، وبه يسكن. وبه يحيا، وبه يموت، وبه يبعث كما في صحيح البخاري عنه - صلى الله عليه وسلم - فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: (**ما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه. ولا يزال عبدي يتقرب إلي**

103- التسهيل لعلوم التنزيل للإمام أبي القاسم بن جزي – (257/1) .

بالنو افل حتى أحبه. فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها. فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه. وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت و أكره مساءته، ولا بد له منه).

فإذا صار محبوبا لله أوجبت محبة الله له محبة أخرى منه لله، فوق المحبة الأولى، فشغلت هذه المحبة قلبه عن الفكرة والاهتمام بغير محبوبه، وملكت عليه روحه، ولم يبق فيه سعة لغير محبوبه البتة.

فصار ذكر محبوبه وحبه ومثله الأعلى مالكا لزمام قلبه، مستوليا على روحه، استيلاء المحبوب على محبه الصادق في محبته التي قد اجتمعت قوى حبه كلها له [104].

*** * * * * ***

المحور الثاني : الشوق إلى لقاء الله تعالى [105]:

الشوق إلى الله تعالى ينبع من المحبة، فإن (محبة الله إذا تمكنت من القلب ظهرت آثارها على الجوارح من الجدّ في طاعته والنشاط لخدمته، والحرص على مرضاته والتلذذ بمناجاته، والرضا بقضائه، والشوق إلى لقائه والأنس بذكره، والاستيحاش من غيره، والفرار من الناس، والانفراد في الخلوات، وخروج الدنيا من القلب، ومحبة كل من يحبه الله وإيثاره على كل من سواه) [106].

وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم كان من دعائه : (اللهُمَّ بِعِلْمِكَ الْغَيْبَ، وَقُدْرَتِكَ عَلَى الْخَلْقِ، أَحْيِنِي مَا عَلِمْتَ الْحَيَاةَ خَيْرًا لِي وَتَوَفَّنِي إِذَا عَلِمْتَ الْوَفَاةَ خَيْرًا لِي اللهُمَّ أَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ، يَعْنِي فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَأَسْأَلُكَ كَلِمَةَ الْحُكْمِ فِي الرِّضَا وَالْغَضَبِ وَأَسْأَلُكَ الْقَصْدَ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى، وَأَسْأَلُكَ نَعِيمًا لَا يَبِيدُ وَأَسْأَلُكَ قُرَّةَ عَيْنٍ لَا تَنْقَطِعُ، وَأَسْأَلُكَ الرِّضَا بَعْدَ الْقَضَاءِ، وَأَسْأَلُكَ بَرْدَ الْعَيْشِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ فِي غَيْرِ ضَرَّاءٍ مُضِرَّةٍ وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ، اللهُمَّ زَيِّنَّا بِزِينَةِ الْإِيمَانِ وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ) [107].

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى : الله سبحانه وتعالى خلق الخلق لعبادته، الجامعة لمعرفته، والإنابة إليه، ومحبته، والإخلاص له، فبذكره تطمئن قلوبهم، وتسكن نفوسهم، وبرؤيته في الآخرة

104- الداء والدواء (427 - 438) بتصرف يسير.

105- ملخص من موقع الإسلام سؤال وجواب.

106- التسهيل - لابن جزي (1/ 106).

107- رواه النسائي في "السنن الكبرى" (1229) .

تَقَرُّ عيونهم، ويتم نعيمهم، فلا يعطيهم في الآخرة شيئًا هو أحب إليهم ولا أقرُّ لعيونهم ولا أنعم لقلوبهم من النظر إليه، وسماع كلامه منه بلا واسطة، ولم يُعطِهم في الدنيا شيئًا خيرًا لهم، ولا أحبَّ إليهم، ولا أقرَّ لعيونهم من الإيمان به، ومحبته، والشوقِ إلى لقائه، والأُنْسِ بقربه، والتنعُّم بذِكْره.

وقد جمع النبي صلى الله عليه وسلمبين هذين الأمرين في الدعاء الذي رواه النسائي، والإمام أحمد، وابن حبان في "صحيحه" وغيرهم من حديث عمار بن ياسر أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان يدعو به: "اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، أحْيِني ما علمت الحياة خيرًا لي، وتوفّني إذا كانت الوفاة خيرًا لي " [108].

فجمع في هذا الدعاء العظيم القدر بين أطيب شيء في الدنيا وهو الشوق إلى لقائه سبحانه، وأطيب شيء في الآخرة وهو النظر إلى وجهه سبحانه، ولما كان كمال ذلك وتمامه موقوفًا على عدم ما يضر في الدنيا، ويفتن في الدين، قال: "في غير ضرّاء مُضرة، ولا فتنة مُضلة [109].

والشوق إلى الله تعالى هو مما يحصل للعبد في الدنيا ، فإن من أقبل على الله وعبادته ، وحصل سبل الحياة الطيبة ، والشوق من مراتب المحبة ، فالمحبة على درجات منها : الشوق .

قال ابن القيم رحمه الله : " ثم الشوق، وهو سفر القلب إلى المحبوب أحث السفر، وقال بعض أهل البصائر في قوله تعالى: من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت [العنكبوت: 5]: لما علم الله سبحانه شدة شوق أوليائه إلى لقائه، وأن قلوبهم لا تهدأ دون لقائه، ضرب لهم أجلا وموعدا للقاء تسكن نفوسهم به. وأطيب العيش وألذه على الإطلاق عيش المحبين المشتاقين المستأنسين [110] .

قال ابن رجب رحمه الله : وأما الشوق إِلَى لقاء اللَّه في الدُّنْيَا فهو أعظم لذّة تحصل للعارفين في الدُّنْيَا، فمن أنس باللَّه في الدُّنْيَا واشتاق إِلَى لقائه، فقد فاز بأعظم لذّة يمكن لبشر الوصول إليها في هذه الدار.

كان أبو الدرداء يقول: أَحَبّ الموت اشتياقًا إِلَى ربي عز وجل.

108- وبقية الحديث (وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا، وأسألك القصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيمًا لا ينفَد، وأسألك قُرّة عين لا تنقطع، وأسألك الرضا بعد القضاء، وأسألك برْد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك، والشوقَ إلى لقائك، في غير ضَرّاءَ مُضِرّة، ولا فتنة مُضلة، اللهم زَيِّنَّا بزينة الإيمان، واجعلنا هُداةً مهتدين) .

109- إغاثة اللهفان "(1/ 41).

110- "الداء والدواء": (427 - 438) بتصرف يسير، ويرجى مراجعته، فإنه نفيس جدًا في شرح معنى الشوق، وأسبابه. و انظر: "مدارج السالكين" (1/ 429).

قال أبو عتبة الخولاني: كان إخوانكم، لقاء اللَّه أَحَبّ إليهم من الشهادة.

كان بعضهم يقول: إذا ذكرت القدوم عَلَى اللَّه كنت أشدّ اشتياقًا إِلَى الموت من الظمآن الشديد ظمؤه، في اليوم الحار الشديد حره إِلَى الماء البارد الشديد.

كانت رابعة تقول: قد طالت عليَّ الأيام والليالي بالشوق إِلَى لقاء اللَّه عز وجل.

وقال بعضهم : اخدموه شوقًا إِلَى لقائه، فإن له يومًا يتجلى فيه لأوليائه..."[111] .

***　　*　*　*　*　　***

فائدة : لا تلازم بين الشوق إلى الله ، ومحبة لقائه سبحانه ؛ وحب الموت ، أو عدم الخوف منه ، أو حتى عدم كراهته، بل قد يمتلئ القلب بالشوق إلى رب العالمين، ومحبة لقائه، وهو في سيره في هذه الدنيا، يأمُل العيش، ويكره الموت، كما تكرهه النفوس، ولا تعارض بين الأمرين؛ حتى إذا دنا أجله، وسيق إلى حِمامه، نزلت عليه الملائكة تبشره بالقدوم على رب العالمين، وتفسح له في رحمة أرحم الراحمين، فسرَّه ذلك، واستبشر، وانشرح له صدره، وزاد اشتياقه إلى لقاء رب العالمين.

عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : (**مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ**) قَالَتْ عَائِشَةُ أَوْ بَعْضُ أَزْوَاجِهِ: إِنَّا لَنَكْرَهُ المَوْتَ، قَالَ: (**لَيْسَ ذَاكِ، وَلَكِنَّ المُؤْمِنَ إِذَا حَضَرَهُ المَوْتُ بُشِّرَ بِرِضْوَانِ اللَّهِ وَكَرَامَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ، فَأَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ وَأَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَإِنَّ الكَافِرَ إِذَا حُضِرَ بُشِّرَ بِعَذَابِ اللَّهِ وَعُقُوبَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ، كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ وَكَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ**) رواه البخاري (6507) ، ومسلم (2683).

قال ابن عبد البر رحمه الله : الذي أقول في معنى هذا الحديث ما شهدت به الآثار المرفوعة وهي الملجأ والحجة لمن لجأ إليها وذلك والله أعلم عند معاينة الإنسان ما يعانيه عند حضور أجله، فإذا رأى ما يكره لم يحب الخروج من الدنيا ولا لقاء ما عاين مما يصير إليه وأحب لو بقي في الدنيا ليتوب ويعمل صالحا وإن رأى ما يحب أحب لقاء الله والإسراع إلى رحمته لحسن ما يعاين من ذلك[112].

المحور الثالث : الشوقُ إلى لقاء النبي صلى الله عليه وسلم : حين تذكره، وحينما تذكر سيرته، وتمني صحبته، وإدراك الشرف بصحبته، وبذل الغالي لحصول ذلك لو أمكن، وتمني صحبة أصحابه ولو لم يحصل ذلك إلا بإنفاق كل المال، وما عرف عن الصادقين من المؤمنين إلا مثل هذا

111- رسائل ابن رجب (181/1).

112- الاستذكار" (362/8).

الشعور الصادق؛ فعن أبي هريرة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (**مِن أشد أمتي لي حبًّا: ناسٌ يكونون بعدي، يودُّ أحدهم لو رآني بأهله وماله**)؛ رواه مسلم .

وجاء أن امرأة قتل أبوها وأخوها وزوجها يوم أحد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : ما فعل رسول الله؟.قالوا: خيرا، هو بحمد الله كما تحبين. فلما رأته قالت: كل مصيبة بعدك جلل.

ولما احتضر بلال رضي الله عنه قالت امر أته: واحزناه، فقال: واطرباه.غدا نلقى الأحبه .. محمدا وحزبه .

ويروى أن امرأة قالت لعائشة رضي الله عنها : اكشفي لي قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فكشفته لها فبكت حتى ماتت.

وكان خالد بن معدان رحمه الله لا يأوي إلى فراشه إلا وهو يذكر من شوقه إلى رسول الله وإلى أصحابه، ويسميهم ويقول: هم أصلي وفصلي، وإليهم يحن قلبي، طال شوقي إليهم، فعجل رب قبضي إليك. حتى يغلبه النوم[113].

الركب العراقي يشتاق للحبيب النبي صلى الله عليه وسلم : خرج الركب العراقي حاجّاً في سنة 394هـ ، فلما فرغوا من الحج عزم أميرهم على العود سريعاً إلى بغداد وأن لا يقصدوا المدينة النبوية خوفاً من سرّاق الحجيج، فقام شابان قارئان على جادة - مفترق - الطريق التي منها يُعدل إلى المدينة النبوية – عند المفرق - ، وقرآ (**مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلاَ يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ**) التوبة (120) فضج الناس بالبكاء، وأمالت النوق أعناقها نحوهما - أي نحوي الشابين التاليين للآية - ، فمال الناس بأجمعهم والأمير إلى المدينة فزاروا وعادوا سالمين إلى بلادهم [114].

شوق الشجر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم :

خطب إلى جذع نخلة، فلما صنع له المنبر تحول إليه فحن الجذع، وسمع الناس له صوتا كصوت العشار - النوق الحوامل - حتى تصدع وانشق، حتى جاء رسول الله فوضع يده عليه فسكت، وكثر بكاء الناس لما رأوا به، فقال النبي: (**إن هذا بكى لما فقد من الذكر، والذي نفسي بيده لولم ألتزمه، لم يزل هكذا إلى يوم القيامة**).

113- هذه الآثار الأربعة في الشفا – للقاضي عياض - (2/21-23)

114- تاريخ ابن كثير(11/334) .

فأمر به فدفن تحت المنبروكان الحسن البصري إلى حدث بهذا بكى وقال: يا عبادا لله! الخشبة تحن إلى رسول الله، شوقا إليه بمكانه، فأنتم أحق أن تشتاقوا إلى لقائه [115].

وعَنْ يَعْلَى بْنِ مُرَّةَ الثَّقَفِيِّ، قَالَ: ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ رَأَيْتُهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وذكر منها - قَالَ: ثُمَّ سِرْنَا، فَنَزَلْنَا مَنْزِلًا، فَنَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَجَاءَتْ شَجَرَةٌ تَشُقُّ الْأَرْضَ حَتَّى غَشِيَتْهُ، ثُمَّ رَجَعَتْ إِلَى مَكَانِهَا، فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَكَرْتُ لَهُ، فَقَالَ: «**هِيَ شَجَرَةٌ اسْتَأْذَنَتْ رَبَّهَا فِي أَنْ تُسَلِّمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَذِنَ لَهَا**» [116].

وأخرج البيهقي بسند صححه الألباني في صحيح السيرة النبوية عَنْ عَلِيّ بْنِ أَبِى طَالِبٍ رضي الله عنه قَالَ : **(كُنَّا مَعَ النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَكَّةَ فَخَرَجْنَا مَعَهُ فِي بَعْضِ نَوَاحِيهَا فَمَرَرْنَا بَيْنَ الْجِبَالِ وَالشَّجَرِ فَلَمْ نَمُرَّ بِشَجَرَةٍ وَلاَ جَبَلٍ إِلاَّ قَالَ السَّلاَمُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ)** .

*** * * * * ***

115- بتصرف وأصله مروي في صحيح البخاري، انظر الشفا 304/1، صحيح الجامع2256) ، نقلا عن مقال : الشوق إلى النبي صلى الله عليه وسلم -د. لطف الله بن ملا عبد العظيم خوجه (صيد الفوائد) .

116- وأخرج الإمام أحمد في مسنده بسند قال عنه الألباني في المشكاة في الجزء الثالث حديث رقم (5922) قال صحيح لشواهده .

المطلب الثاني

عبادات قلبية لتقوية الصلة بالمؤمنين [117] :

1- تعلُّقُ القلب بأعمال الخير، وإن فارقها فنفسه تهفو إلى الطاعة، فإذا انقضى شهر رمضان، تاقت نفسه لعودة هذا الشهر؛ ليتقرب إلى ربه بالأعمال الصالحة فيه، وإذا أدى العمرة تحيَّن أقربَ فرصة للعودة لزيارة البيت العتيق، وإذا انتهى موسم الحج، وطَّن نفسه أنه يحج مرة ثانية، وإذا انقضت صلاة، تحين الصلاة التالية وعينه على ساعته: كم بقي من الوقت على الصلاة التالية؟ وهكذا، فقلبُه دائمًا في عبادة ربه، وإن كان بدنه خارج هذه العبادة، ففي حديث أبي هريرة، في السبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: (**رجل قلبه معلق في المساجد**)؛ متفق عليه .

2-تمنِّي الخير، والعمل على فعل ذلك، وبذل السبب في تحقيق ذلك، فحين ترى النفس مَن يبذل في سبيل الخير، يصرف ماله في وجوه الخير على الفقراء والمحتاجين، تقول تلك النفس الصادقة، التي لا تجد المال: لو أن لي مالاً، لعملتُ مثله، فهُما في الأجر سواء.

تتمنى تلك النفوس الزكية لو بنتْ مسجدًا؛ منافسة للآخرين على أبواب الخير، تتمنى لو بذلت مهجتها في سبيل الله، تتمنى لو نفعت المسلمين بالعلم النافع، والدعوة في سبيل الله، فحينما تصدق النفس مع ربها - عز وجل - ويعلم منها أنه لو يسَّر لها أبواب الخير، لأنفقتْ وبذلتْ، فمع الصدق وتمني الخير، أنالها ربها أجر العامل سواء بسواء؛ بِنيَّتها، وإن كانت لم تعمل بجوارحها؛ فعن أنس بن مالك - رضي الله عنه -: أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رجع من غزوة تبوك، فدنا من المدينة، فقال: (إن بالمدينة أقوامًا، ما سرتم مسيرًا، ولا قطعتم واديًا، إلا كانوا معكم)، قالوا: "يا رسول الله، وهم بالمدينة؟!"، قال: (وهم بالمدينة؛ حبسهم العذر)؛ رواه البخاري (4423)، فلم يجدوا ظهرًا يركبونه: ﴿**وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ**﴾ [التوبة: 92]، وعن سهل بن حنيف: أن النبي - صلى الله عليه وسلم – قال: **(مَن سأل اللهَ الشهادةَ بصدق، بلَّغه الله منازل الشهداء، وإن مات على فراشه)**؛ رواه مسلم (1909)، فنيَّةُ المؤمن خير من عمله، فبالنية الحسنة، وتوطين النفس على فعل الخير متى ما قدر عليه، يحصل الثواب والأجر به ما لا يحصل بعمل الجوارح.

* * *   * * * *   * * *

117- عبودية القلب - الشيخ أحمد الزومان – شبكة الألوكة - بتصرف .

3- الهمُّ الذي يحمله البعض لإخوانه المسلمين، والحزن الذي يهجم على قلبه؛ بسبب ما يصيب إخوانَه المسلمين من نكبات، وتسلط الأعداء عليهم، واستيلائهم عليهم، وكذلك حزنه على أحبابه وجيرانه حينما يرى عليهم التقصير في حق خالقهم من فعلٍ للمنهيات، أو ترك للواجبات، مع بذله الوسع في محاولة تقويمهم، وردهم لجادة الصواب، فهذا الحزن يؤجر عليه، فيكفر به عن سيئاته؛ عن أبي هريرة، عن النبي - صلى الله عليه وسلم – قال: (**ما يصيب المسلمَ من نصبٍ ولا وصب، ولا همٍّ ولا حُزْن، ولا أذى ولا غم، حتى الشوكةِ يشاكها، إلا كفَّر الله بها من خطاياه**)؛ رواه البخاري (5642).

4- كراهة المنكر بالقلب، حتى على مَن هو متلبس بالمنكر، فإنكار المنكر بالقلب فرض عين على كل مسلم، أما تغييره باليد واللسان، فهو من فروض الكفايات مع القدرة على ذلك، وقد بيَّن النبي أنه ليس هناك مرتبة أخرى في إنكار المنكر تلي إنكارَ القلب؛ فعن أبي سعيد، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (**مَن رأى منكم منكرًا فليُغيِّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه؛ وذلك أضعف الإيمان**)؛ رواه مسلم (49).

5- محبةُ المسلمين : وتمني الخير لهم، وكراهة حصول المكروه لهم كما نكرهه لأنفسنا، فليس بمؤمن مَن لا يحب لإخوانه المسلمين مِن الخير ما يحب لنفسه، ويكره لهم من الشر ما يكرهه لنفسه؛ عن أنس بن مالك، عن النبي - صلى الله عليه وسلم – قال: (**لا يؤمن أحدكم، حتى يحب لأخيه - أو قال: لجاره - ما يحب لنفسه**)؛ رواه البخاري (13)، ومسلم (45) واللفظ له.

6- تطهير القلب تجاه إخواننا المسلمين : فلا غلَّ، ولا حقد، ولا حسد لأحد من المسلمين، وقد امتدح الله الأنصار وأثنى عليهم بمحبتهم لإخوانهم المهاجرين، وعدم حقدهم على المهاجرين على ما آتاهم الله من فضله، وخصهم به من الفضائل والمناقب، فقد اختصهم الله بشرف الهجرة، وببعض الأموال التي لهم دون إخوانهم الأنصار، وهذا يدل على سلامة صدورهم، وانتفاء الغل والحقد والحسد عنها، امتدحهم بقوله - تعالى -: ﴿**وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ**﴾ [الحشر: 9، 10].

*** * * * * ***

المبحث السابع

عبودية الكائنات لله تعالى في ضوء الكتاب والسنة

مدخل : مفهوم الكائنات و أقسامها وعبوديتها لله تعالى جميعها على الإطلاق .

المطلب الأول : لمحة من عبودية كائنات عالَم الشهادة لله تعالى .

المطلب الثاني : لمحة من عبودية كائنات عالَم الغيب لله تعالى .

المحور الأول : لمحة من عبودية الكائنات الحية في عالَم الغيب لله تعالى .

المحور الثاني : لمحة من عبودية الجمادات في عالَم الغيب لله تعالى . .

مدخل

مفهوم الكائنات و أقسامها وعبوديتها لله تعالى جميعها على الإطلاق

جميع الخلائق حيها وجمادها، علويها وسفليها، شاهدها وغيبها، عابدة لله عز وجل، وطائعة ومنقادة له سبحانه وتعالى. والله سبحانه وتعالى هو الذي خلقها؛ وهو الذي جعل لها إدراكاً وتمييزاً؛ لتعبده وتسبحه وتطيعه، فيجب على الإنسان الإيمان بذلك، ويجب عليه أيضاً أن يكون أولى الخلق بعبادة الله عز وجل وسنبين في هذا المدخل مفهوم الكائنات والدليل على كونها جميعها وبلا استثناء عابدة لله تعالى [118]:

مفهوم الكائنات : جمع كائن بمعنى: المخلوق المصنوع الموجود المقهور الخاضع الذليل، ومنه كلمة (استكان) يعني: ذل وخضع لمكوّنه، فالكائنات لفظ يرادف الموجودات والمخلوقات، فهي تشمل كل ما سوى الله عز وجل، حيث إنه تعالى هو الموجد والمكون والخالق لها؛ لأن كل ما في الوجود إما خالق أو مخلوق، فالخالق هو الله وحده، وكل ما عدا الله مخلوق مكون فهو من الكائنات الموجودة. فإذاً: الكائنات هي كل ما عدا الله، وهي التي وصفها الله بقوله: **(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ)** [الإسراء:44].

وقد قسم العلماء الكائنات باعتبارين إلى أقسام:

التقسيم الأول: تقسيم الكائنات إلى: علويات وإلى سفليات.

أما العلويات : فيقصدون السماء والكواكب والنجوم والفلك والجنة والملائكة والعرش والكرسي. **وأما السفليات :** فالنار والهواء والماء والتراب والرياح والسحاب والأرض والجبال والشجر والبحار والأنهار والأحجار والحيوانات والإنسان والنبات والطيور.

التقسيم الآخر وهو أدق: تقسيم الكائنات إلى: كائنات في عالم الغيب، وكائنات في عالم الشهادة.

أما عالم الغيب : فهو كل ما غاب عنك، فهناك أحياء غيبية كالملائكة والجن، فهي أحياء لكنها في عالم الغيب، وهناك جمادات غيبية، كالجنة والنار والقلم والعرش.

أما عالم الشهادة : فيشمل كل ما هو مشاهد محسوس في حياة المخلوقات، فهناك الإنس، والإنس يشملون الأنبياء وأتباعهم، وهناك الحيوانات والنباتات والجمادات وغير ذلك. وكل هذه الأقسام

118- عبودية الكائنات [1-2] - للشيخ : محمد إسماعيل المقدم - محاضرات - موقع إسلام ويب – بتصرف .

التي ذكرنا تقوم بعبادة الله سبحانه وتعالى وتسبيحه، ليس على المجاز، ولكن على الحقيقة كما سنبين [119]:

* * * * * * * * * *

ومن هذه العبودية التي تقوم بها الكائنات في عالمي الغيب والشهادة عبادة السجود، يقول تبارك وتعالى: (**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ**) [الحج:18].

في هذه الآية قرينة واضحة على أن السجود هنا سجود حقيقي، وليس بالمعنى المؤول بأنه بالدلالة على الله سبحانه وتعالى، هذه القرينة هي قوله تعالى: (**وَكَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ**)، فلو كان المقصود التسبيح بمعنى أن من رآها قال: سبحان الله، لقال: والناس أو وكل الناس؛ لأنك إذا رأيت أي مخلوق خلقه الله، فيمكن أن تقول: سبحان الله؛ لأنه خلق له هذه العين وهذه الأذن وهذا الأنف، وخلقه بهذه الطريقة، فلو كانت الدلالة العامة بالصورة المؤولة لما قال تبارك وتعالى: (**وَكَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ**)، ولكن بعض الناس قال: لم يقصد هنا التسبيح الحقيقي؛ لأن من الناس من يكفر بالله ويجحده، ولا يسجد له ولا يسبحه، فإذا كان الأمر كما زعموا فلن يكون لتخصيص السجود بكثير من الناس معنىً.

* * * * * * * * * *

ثم قال تعالى في موضع آخر: (**أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنْ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّداً لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ * وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ * يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**) [النحل:48-50].

ومعنى قوله تعالى: (**أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنْ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّداً لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ**) [النحل:48]، حيث إنه هنا بين كيفية سجود هذه الأشياء فقال: (**يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ**)، يعني: أن الكائنات التي لها ظل هذه هي كيفية سجودها لله سبحانه وتعالى، فالله قادر على أن يخلق للظل إدراكاً يسجد لله به سجوداً حقيقياً.

119- السابق – بتصرف .

وقوله : (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ) هذا يدل على أن المقصود جميع الكائنات؛ لأنه ليس هناك كائنات تخرج عن السماء أو الأرض؛ فلذلك هذا كله يسجد سجوداً حقيقياً لله عز وجل، ولذا قال: (وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ * يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) [النحل:49-50].

فلو قيل : كيف يسجد الشجر؟ وكيف يسجد القمر؟ وكيف تسجد الشمس؟ وكيف تسجد هذه الكائنات؟ لقلنا: لا ندري، لكن هي تسجد قطعاً بلا شك في ذلك. فالخلاف هو في كيفية السجود، ونحن نعرف فقط سجودنا نحن؛ إذ نسجد على سبعة أعضاء، أما ما عدانا من الكائنات فهي تسجد، ولكننا لا نعرف هذه الكيفية.

لكن يختلف الإنسان عمن عداه في كيفية السجود، فنحن -مثلاً- معشر المسلمين سجودنا الخاص بنا هو ذلك السجود الذي يكون على سبعة أعضاء، أما بقية الكائنات فسجود كلٍ بحسبه، إذ كل كائن له طريقة خاصة بالسجود الله أعلم بها.

* * *   *   *   *   *   * * *

ومن عبودية الكائنات أنها مسلمة بالله عزوجل، كما قال سبحانه : (أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ) [آل عمران:83].

ومن عبودية الكائنات أنها تسبح الله عز وجل، كما قال سبحانه (تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا) سورة الإسراء (44).

فمثلاً: الطيور تسمعها في وقت الشروق وفي وقت الغروب، وإذا كان هناك غابة فيها أشجار كثيرة أو بستان أو حديقة تسمع أصوات الطيور في هذين الوقتين بالذات كأنها أوامر مكلفة بها، وحينما تسمع هذا ما يدريك لعل هذا هو تسبيح الطيور؟ لكنك لا تفقه منه شيئاً، وكونك لا تفقه لا يسوغ لك أن تنكره. وهكذا الأمواج تسبح، وكل ما خلق الله سبحانه وتعالى من الكائنات يسبح الله عز وجل.

* * *   *   *   *   *   * * *

المطلب الأول

لمحة من عبودية كائنات عالَم الشهادة لله تعالى

ذكرنا في المدخل أن من تقسيمات الكائنات أنها تنقسم إلى عالم الغيب وعالم الشهادة ، كما ذكرنا أنها كلها تقوم بعبادة الله تعالى ، واخترت هذا التقسيم لبيان بعض ما تقوم به من عبادات، ولبدأ بكائنات عالم الشهادة ، في هذا المطلب ثم نثني بعبادات من عالم الغيب في المطلب التالي .

1- عبودية السماوات لله تعالى :

يقول تعالى : **(ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعاً فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعاً أَوْكَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ)** [فصلت:11].

قال الطبري رحمه الله : وقوله: **(فَقَالَ لَهَا وَلِلأرْضِ اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْكَرْهًا)** يقول جلّ ثناؤه: فقال الله للسماء والأرض: جيئا بما خلقت فيكما, أما أنت يا سماء فأطلعي ما خلقت فيك من الشمس والقمر والنجوم, وأما أنت يا أرض فأخرجي ما خلقت فيك من الأشجار والثمار والنبات, وتشقَّقِي عن الأنهار **(قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ)** جئنا بما أحدثت فينا من خلقك، مستجيبين لأمرك لا نعصي أمرك.رجح الطبري هذا القول ونسبه إلى ابن عباس رضي الله عنهما .

وقال سبحانه **(تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا)** سورة الإسراء (44).

قال السعدي رحمه الله : قوله تعالى **(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ)** من حيوان ناطق وغير ناطق ومن أشجار ونبات وجامد وحي وميت **(إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ)** بلسان الحال ولسان المقال.

(وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ) أي: تسبيح باقي المخلوقات التي على غير لغتكم بل يحيط بها علام الغيوب .

وقال عزوجل : (وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ) [هود:44].

ويقول تعالى: **(تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً)** [مريم:90-91] .

يقول ابن عباس رضي الله عنهما : إن الشرك فزعت منه السماوات والأرض والجبال وجميع الخلائق، إلا الثقلين، وكادت أن تزول منه لعظمة الله.

ويقول تبارك وتعالى : (فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ) [الدخان:29]، قال بعض العلماء: فيه أنهما لا يبكيان على الكافرين، ومفهومه أنهما يبكيان على المؤمنين، وفراق الصالحين.

كل شيء له بكاء خاص به، فبكاء الإنسان بالدموع، أما بكاء السماوات والأرض فبحسبهما، والله أعلم بكيفيته.

* * *　　　* * * *　　　* * *

2- عبودية الأرض لله تعالى :

تقدمت الآية الكريمة : (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعاً فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ) [فصلت:11].

كما تقدم قوله سبحانه (تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا) سورة الإسراء (44).

وكذلك نجد عبودية الأرض لله تعالى في قوله تعالى: **(يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا)** [الزلزلة:4-5] قالوا : تشهد على بنيها بما عملوا على ظهرها من خير وشر.

ومما ورد أيضا في عبودية الأرض لله تعالى ما جاء في قصة يأجوج ومأجوج، يقول عليه الصلاة والسلام: (**ثم يقال للأرض: أنبتي ثمرتك، وردي بركتك**) متفق عليه.

كذلك أيضاً في قصة الرجل الذي أمر بنيه بإحراقه، يقول عليه الصلاة والسلام: **(فأمر الله الأرض فقال: اجمعي ما فيك منه، ففعلت).**

وأيضاً في قصة الرجل الذي قتل مائة، قال عليه الصلاة والسلام: **(فأوحى الله إلى هذه أن تباعدي، وإلى هذه أن تقربي)**، وهذا رواه مسلم .

ويقول عليه الصلاة والسلام: **(إذا كان أجل أحدكم بأرض)** -أي: إذا كان مكتوباً لك أن تموت في أرض معينة- **(أوثبته إليها الحاجة، فإذا بلغ أقصى أثره)** -أي: بلغ الخطوات المكتوبة له- **(قبضه الله سبحانه، فتقول الأرض يوم القيامة: رب! هذا ما استودعتني).**

و أيضاً الأرض هي من المخلوقات التي تعرف الولاء والبراء كما ذكرنا، فهي توالي أولياء الله، وتعادي أعداء الله، كما ورد عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: (كان منا رجل من بني النجار قد قرأ البقرة وآل عمران، وكان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فانطلق هارباً حتى لحق بأهل الكتاب، -يعني: ارتد- فعرفوه، وقالوا: هذا كان يكتب لمحمد -عليه الصلاة والسلام-

فأعجبوا به فما لبث أن قصم الله عنقه فيهم ، فحفروا له فواروه، فأصبحت الأرض قد نبذته على وجهها، ثم عادوا فحفروا له فواروه، فأصبحت الأرض قد نبذته على وجهها، فتركوه منبوذاً) رواه مسلم .

وعن أوس بن أوس رضي الله عنهما مرفوعاً: (إن الله قد حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء)، رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه وصححه الألباني ؛ **فهي عابدة تطيع أمر الله سبحانه وتعالى فلا تأكل أجساد الأنبياء.**

*** * * * * ***

5-3/ عبودية الرياح والرعد والسحاب لله تعالى :

أما الرعد فهو يسبح الله تعالى : يقول تعالى: **(وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ)** [الرعد:13]، ويقول تعالى : **(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ)** [الإسراء:44]، **وكان بعض السلف إذا كان يقرأ في درس العلم وسمع صوت الرعد، يقول: سبحان من سبحتَ له!**

وكذلك الريح : فالريح من الكائنات التي نص على أنها تشفق من يوم الجمعة خشية أن يكون هذا هو الذي تقوم فيه القيامة، وأيضاً الريح لها عبودية، يقول تعالى في حق سليمان عليه السلام: **(فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ)** [سورة ص:36]، أي تجري بأمر سليمان عليه السلام.

وعن جابر رضي الله عنه قال: قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفر، فلما كان قرب المدينة هاجت ريح تكاد أن تدفن الراكب، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (بعثت هذه الريح لموت منافق، فقدم المدينة، فإذا عظيم من المنافقين قد مات).

والسحاب كذلك له عبودية لله عز وجل : يقول عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم : (بينما رجل بفلاة من الأرض، إذ سمع صوتاً في السحاب: اسق حديقة فلان! فمر الرجل مع السحابة، حتى أتت على الحديقة، فلما توسطتها -أي: كانت بحذائها- أفرغت فيها ماءها، فإذا برجل معه مسحاة يسحي الماء بها، فقال: ما اسمك يا عبد الله؟! قال: فلان، بالاسم الذي سمعه في السحابة، فقال له: يا عبد الله! لمَ تسألني عن اسمي؟ فقال: إني سمعت صوتاً في السحاب الذي هذا ماؤه يقول: اسق حديقة فلان باسمك، فما تصنع فيها؟ قال: أما إذ قلت هذا، فإني أنظر إلى ما يخرج منها، فأتصدق بثلثه، وآكل أنا وعيالي ثلثه، وأرد فيها ثلثه).

6- عبودية النجوم لله تعالى : يمكن أن يستدل لعبودية النجوم بالأدلة العامة : كقوله تعالى: (تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا) سورة الإسراء (44).

ومن الأدلة الخاصة بعبودية النجوم لله قوله تعالى :(أَلَمْ تَرَأَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُوَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ)[الحج:18]. وقوله تعالى: (وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ) [الأعراف:54].

وأما قوله تعالى : (وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ) [الرحمن:6]، ففيه خلاف في تفسير النجم، هل المقصود به ما لا ساق له من النبات، أم النجوم التي في السماء؟ وعلى أي حال إذا قلنا: إن النجم في آية الرحمن هو ما لا ساق له من النبات.

7-8/ عبودية الشمس والقمر: دليلها قوله تعالى :(وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَوَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ) [الأعراف:54]، ويقول سبحانه: (وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ) [إبراهيم:33] ، ويقول: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ) [الحج:18]، فعطفهما على العاقل، وهذا يدل على أنه سجود حقيقي.

ويقول عليه الصلاة والسلام في الشمس: (إن هذه تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش، فتخرساجدة، فلا تزال كذلك حتى يقال لها: ارجعي من حيث جئت، فترجع، فتصبح طالعة من مطلعها)، متفق عليه.

وهذا سجود لله أعلم بكيفيته، لكنه سجود يناسبها، وأما كيف هو؟ فلا ندري.

وكذلك ما جاء في قصة يوشع بن نون لما قاتل الجبابرة، وأوشكت الشمس على المغيب، وأراد أن يقضي على الكفارقبل دخول الليل، ففي الحديث: (فلقي العدو عند غروب الشمس، فقال للشمس: أنت مأمورة، و أنا مأمور، اللهم احبسها علي شيئاً، فحبست عليه).

وكذلك أيضاً انشقاق القمر، فإن القمر انشق على عهد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فرقتين، ثم قال: (اشهدوا) كما هو معلوم [120].

* * *　　　* * * *　　　* * *

120- السابق – بتصرف .

9- عبودية النباتات : لقد ذكرنا من قبل الدليل العام وهو قوله تعالى: **(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ)** [الإسراء:44]، وقوله سبحانه: **(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ)** [الحج:18]، **وكذلك أيضاً ذكرنا شهادة الشجروالحجر وكل من يسمع المؤذن يوم القيامة.**

وكذلك أيضاً يقول عليه الصلاة والسلام : (ما من ملبٍ يلبي إلا لبى ما عن يمينه وشماله من حجر أو شجر أو مدر، حتى تنقطع الأرض من هاهنا وهاهنا) .

عن أبي قتادة بن رِبْعِيٍّ الأنصاري رضي الله عنه: أنه كان يحدِّث: أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: مُرَّ عليه بجنازة فقال: (**مُستريحٌ ومُسْتَرَاحٌ منه**)، قالوا : يا رسول الله، ما المُستريحُ والمُستَرَاح منه؟ فقال : (**العبد المؤمن يستريح من نصَبِ الدنيا وأذاها إلى رحمة الله، والعبد الفاجر يَستريح منه العبادُ والبلاد والشجَرُ والدوابُّ**) متفق عليه .

وعن أنس رضي الله عنه قال: جاء جبريل عليه السلام ذات يوم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس حزين قد خضب بالدماء، قد ضربه أهل مكة فقال: **(فعل بي هؤلاء وفعلوا)**، قال: **أتحب أن أريك آية؟ قال: نعم أرني، فنظر إلى شجرة من وراء الوادي، فقال: ادع تلك الشجرة، فدعاها، فجاءت تمشي حتى قامت بين يديه، قال: قل لها فلترجع، فقال لها، فرجعت حتى عادت إلى مكانها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (حسبي حسبي)**، يعني: هذه الآية، رواه ابن ماجه .

وفي صحيح مسلم : (أنه صلى الله عليه وسلم ذهب لقضاء حاجته، فإذا شجرتان بشاطئ الوادي، فانطلق صلى الله عليه وسلم إلى إحداهما، فأخذ بغصن من أغصانها، فقال: **انقادي عليّ بإذن الله**، فانقادت كالبعير المخشوش الذي يصانع قائده، حتى أتى شجرة أخرى فأتى بغصن من أغصانها، فقال : **انقادي علي بإذن الله**، فانقادت معه كذلك، فجمعهما وقال: **التئما علي بإذن الله، فالتأمتا**)، أي: كي يستتر بهما.

وفي صحيح البخاري : (**أنه صلى الله عليه وسلم كان يخطب الجمعة مستنداً إلى جذع، فقالت امرأة من الأنصار: يا رسول الله! ألا نجعل لك منبراً؟ قال: إن شئتم، فجعلوا له منبراً، فلما كان يوم الجمعة دفع إلى المنبر، فصاحت النخلة صياح الصبي، ثم نزل صلى الله عليه وسلم فضمها إليه، ووضع يده عليها فسكنت**).

وكذلك أيضاً جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاء أعرابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: بمَ أعرف أنك نبي؟ قال: إن دعوت هذا العذق من هذه النخلة يشهد أني رسول

الله، فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجعل ينزل من النخلة حتى سقط إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ثم قال: (ارجع) فعاد، فأسلم الأعرابي .

وجاء أيضاً عن معن بن عبد الرحمن قال: سمعت أبي قال: سألت مسروقاً : من آذن النبي صلى الله عليه وسلم بالجن ليلة سماع القرآن -أي: من الذي أخبره أن الجن حضروا واستمعوا القرآن؟- فقال: حدثني أبوك -يعني: عبد الله بن مسعود أنه (آذنته بهم شجرة)، أي: أن الذي أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم أن الجن حضرت تستمع إلى القرآن شجرة. رواه البخاري .

وأيضاً مما يناسب هذا المقام موقف الشجر في آخر الزمان، ففي حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون، حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر والشجر: يا مسلم! يا عبد الله! هذا يهودي خلفي تعال فاقتله)** [121].

* * *   * * * *   * * *

10- من هذه العبودية التي تقوم بها الكائنات في عالم الشهادة الإيمان بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم [122] :

جميع الكائنات تؤمن بنبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، في حين عمي كثير من الإنس الذين أوتوا العقول ورأوا الآيات عن هذا الحق، وكذبوا برسالته صلى الله عليه وآله وسلم، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(إنه ليس من شيء بين السماء والأرض إلا يعلم أني رسول الله، إلا عاصي الجن والإنس)**، رواه الإمام أحمد ، وصححه الألباني.

ومناسبة هذا الحديث : أنه كان هناك جمل استعصى على الناس، وكان موجوداً في حائط أو بستان، وكان كل من اقترب منه يشد عليه هذا الجمل، حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فدعاه إليه، فأتى الجمل بين يديه، ووضع أنفه على التراب أمام النبي عليه السلام وسكن؛ لأنه عرف أن هذا رسول الله عليه الصلاة والسلام، ولذلك لما تعجب الصحابة من ذلك أجاب الرسول عليه الصلاة والسلام وأزال تعجبهم بقوله : **(إنه ليس من شيء بين السماء والأرض إلا يعلم أني رسول الله، إلا عاصي الجن والإنس)**.

121- عبودية الكائنات [1-2] - للشيخ : محمد إسماعيل المقدم - محاضرات - موقع إسلام ويب – بتصرف .
122- عبودية الكائنات [1-2] - للشيخ : محمد إسماعيل المقدم - محاضرات - موقع إسلام ويب – بتصرف .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه أنه قال للرجل المؤذن: (إني أراك تحب الغنم والبادية، فإذا كنت في غنمك أو باديتك فأذنت للصلاة فارفع صوتك بالنداء، فإنه لا يسمع صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة)، ثم قال أبو سعيد : سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، رواه البخاري ، فكل شيء يسمع صوت المؤذن يشهد له يوم القيامة.

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: (**إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن**)، أي: ما زال الحجر قائماً وموجوداً، وكان إذا رأى النبي عليه الصلاة والسلام قال له: السلام عليك يا محمد! أو يا رسول الله!

وعن سفينة -وهو أبو عبد الرحمن مهران مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولقب سفينة لأنه حمل شيئاً كبيراً في السفر- أنه أخطأ الجيش بأرض الروم، فإذا هو بأسد، فقال: يا أبا الحارث! أنا مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان من أمري كيت وكيت، فأقبل الأسد وله بصبصة -يعني: يحرك الذنب، وكأنه يرحب به- حتى قام إلى جنبه وكلما سمع صوتاً أهوى إليه -أي: أهوى إليه الأسد؛ كي يحميه من أي ضرر يقع به في الطريق- ثم أقبل يمشي إلى جنبه حتى بلغ الجيش، ثم رجع الأسد.

***   *   *   *   *   ***

المطلب الثاني

لمحة من عبودية كائنات عالَم الغيب لله تعالى

ما ذكرناه هو عبودية عالم الشهادة، وهناك عبودية عالم الغيب، وقلنا: إن عالم الغيب هو كل ما غاب عن الحس، ولا نعلم عنه إلا ما ورد في نصوص الوحيين، فعالم الغيب فيه جمادات وفيه أحياء [123].

المحور الأول : لمحة من عبودية الكائنات الحية في عالَم الغيب لله تعالى :

1- عبودية الملائكة لله تعالى :

ومن الأحياء الغيبية فالملائكة، وأشرف صفات الملائكة هو العبودية، كما قال تعالى: **(بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ)** [الأنبياء:26]، وهم مختلفون في وظائفهم، كحملة العرش، والكرام الكاتبين، وخزنة الجنة، وخزنة النار، والموكلين بقبض الأرواح، والموكلين بالسؤال في القبر .. إلى آخر هذه الوظائف، لكنهم جميعاً مشتركون في صفات حميدة :

1- **إيمانهم بالله : دل عليه قوله تعالى:** (**شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ**) [آل عمران:18]، وقال عز وجل: **(لَكِنْ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ)** [النساء:166]، وقال تعالى : **(الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا)** [غافر:7].
2- **خوفهم من الله تعالى : دل عليه قوله تعالى: (يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ)** [النحل:50].

ويقول النبي عليه الصلاة والسلام: (مَرَرْتُ ليلةَ أُسْرِيَ بي بالملأِ الأَعْلَى ، وجبريلُ كالحِلْسِ البالي من خشيةِ اللهِ تعالى) [124] **. الحلس : كساء يبسط ويفرش في أرض البيت وهو قماش رقيق يوضع على ظهر البعير تحت قتبه، فشبه النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم جبريل عليه السلام بالحلس برؤيته لاصقاً لما تلبس به من هيبة الله تعالى، وشدة فرقه منه؛ فالسر في هذا التشبيه: بأن الحلس يلصق بالأرض، أو يلصق بظهر البعير، فكذلك هذا الخوف وهذه الخشية من الله سبحانه وتعالى لصيقة بجبريل عليه السلام تماماً كلصوق الحلس بالأرض، أو بظهر البعير.**

123- عبودية الكائنات [1-2] - للشيخ : محمد إسماعيل المقدم - محاضرات - موقع إسلام ويب – بتصرف .

124- أخرجه ابن أبي الدنيا في الرقة والبكاء - (414)، و ابن أبي عاصم في السنة - (621)، والطبراني في المعجم الأوسط - (4679) واللفظ له ، ورمز السيوطي له الجامع الصغير بالصحة، وصححه الألباني في صحيح الجامع – رقم (5864) .

وتلك الخشية التي تلبس بها جبريل عليه السلام هي التي ترقيه في مدارج التبجيل والتعظيم؛ حتى دعي في التنزيل بأنه الرسول الكريم، وعلى قدر خوف العبد من ربه سبحانه وتعالى يكون قربه؛ فلأن جبريل عليه السلام شديد الخوف والخشية والهيبة لله سبحانه وتعالى فلذلك كان قريباً معظماً عند الله سبحانه وتعالى.[125]

3- **الطاعة الكاملة والخضوع لله تعالى :** كما قال جل وعلا : **(لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ)** [التحريم:6]، وقال سبحانه: **(لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ)** [الأنبياء:27].

4- **الصلاة :** وهم يصلون أيضاً بأنفسهم، أو يصلون مع المؤمنين، فعن أبي ذر رضي الله عنه قال رسول صلى الله عليه وسلم: (**إِنّي أرى ما لا تَرَوْنَ، أَطَّتِ السَّماءُ، وحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَمَلَكٌ واضِعٌ جَبْهَتَهُ ساجِدًا لله تَعَالَى**). رواه الترمذي وقال: حديث حسن .

وفي حديث الإسراء يقول عليه الصلاة والسلام: (**فرفع لي البيت المعمور، فسألت جبريل، فقال: هذا البيت المعمور، يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك إذا خرجوا لم يعودوا إليه آخر ما عليهم**)، رواه البخاري ، **يعني: كل يوم يدخل البيت المعمور سبعون ألف ملك مرة واحدة فقط في كل الزمان، فالذي يدخل مرة لا يدخل مرة ثانية، ومعناه: أن كل يوم يدخل سبعون ألف ملك جديد إلى البيت المعمور.** ويقول تعالى عنهم: **(وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ)** [الصافات:165-166]

الصافون : يعني: صفوف الصلاة، لذلك كان عليه الصلاة والسلام يقول للصحابة: (**ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها، يتمون الصف الأول فالأول، ويتراصون في الصف**)، رواه البخاري .

كذلك يشاركون المؤمنين في الصلاة، كما قال صلى الله عليه وسلم: (**إذا أمن الإمام فأمنوا، فإن من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه**) رواه البخاري ،

كذلك روى البخاري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (**إذا كان يوم الجمعة كان على كل باب من أبواب المسجد الملائكة، يكتبون الأول فالأول، فإذا جلس الإمام طووا الصحف، وجاءوا يستمعون الذكر**)، يعني: يحضرون مجالس الذكر.

5- **ومن عبودية الملائكة لله تعالى ولاؤها للمؤمنين :** كان ولاء الملائكة للمؤمنين لأنهم أهل طاعة، ويحبون أهل الطاعة، ويستغفرون للمؤمنين، كما قال تعالى: **(وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا)** [غافر:7]، وقال تعالى: **(وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الأَرْضِ)** [الشورى:5].

125- شرح حديث (مَرَرْتُ ليلةَ أُسْرِيَ بي بالملأِ الأَعْلَى) - للشيخ : محمد إسماعيل المقدم – محاضرات مفرغة – إسلام ويب .

ويقول تعالى مبيناً أن الملائكة يخاطبون المؤمنين: **(نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ)** [فصلت:31]، وهم الذين يستقبلون المؤمنين وهم يدخلون الجنة، كما قال عز وجل: **(وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ)** [الزمر:73] .

وكذلك من هذه الموالاة: مناصرة المؤمنين في القتال، كما قال تعالى: (فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا) [الأنفال:12]، وقال عز وجل: **(إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنْ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ)** [آل عمران:124]، وقال جبريل عليه السلام للنبي صلى الله عليه وسلم: (**ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال: من أفضل المسلمين، قال: وكذلك من شهد بدراً من الملائكة**).

وقال عليه الصلاة والسلام لحسان بن ثابت رضي الله عنه: **(اهجهم** -يعني: المشركين- **وجبريل معك، أوورو ح القدس معك)**.

* * *   * * * *   * * *

2- عبودية الجن : والمقصود عبودية صالحي الجن، فمعلوم أن الجن مكلفين بالشرائع كالإنس، كما قال تعالى: **(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ)** [الذاريات:56]، ويقول تعالى: **(فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)** [الرحمن:13] أي: الجن والإنس، وقال عز وجل حاكياً عن الجن: **(وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً)** [الجن:11].وأيضاً فيهم الموحدون، كما قال عز وجل عنهم: **(وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً * وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَداً)** [الجن:2-3].

وأيضاً يقول عليه الصلاة والسلام للمؤذن: (**فارفع صوتك بالنداء، فإنه لا يسمع صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة**).

ويقول تبارك وتعالى: (وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ) [الأحقاف:29]. **قال عليه الصلاة والسلام: (فكانوا أحسن مردوداً منكم؛ كنت كلما أتيت على قوله تعالى: (فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)** [الرحمن:13] **قالوا: ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب، فلك الحمد)**، رواه الترمذي .

وكذلك الجن يعرفون أنه لا يعلم الغيب إلا الله، كما قال تعالى حاكياً عنهم: (وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً) [الجن:10]، **ويقول أيضاً: (فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتْ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ)** [سبأ:14].

المحور الثاني : لمحة من عبودية كائنات من الجمادات في عالَم الغيب :

2-1/ عبودية الجنة والنار: وهناك عبودية أيضاً للجنة وللنار، وهما من غيبيات الجمادات، عن أي هريرة رضي الله قال الي صلى الله عليه وسلم: (**تَحاجَّتِ النَّارُ، والْجَنَّةُ، فَقالتِ النَّارُ: أُوثِرْتُ بالمُتَكَبِّرِينَ، والْمُتَجَبِّرِينَ، وقالتِ الجَنَّةُ: فَما لي لا يَدْخُلُنِي إلَّا ضُعَفاءُ النَّاسِ، وسَقَطُهُمْ، وعَجَزُهُمْ، فقالَ اللَّهُ لِلْجَنَّةِ: أنْتِ رَحْمَتي أرْحَمُ بكِ مَن أشاءُ مِن عِبادِي، وقالَ لِلنَّارِ: أنْتِ عَذابِي أُعَذِّبُ بكِ مَن أشاءُ مِن عِبادِي، ولِكُلِّ واحِدَةٍ مِنكُم مِلْؤُها، فأمَّا النَّارُفلا تَمْتَلِئُ، فَيَضَعُ قَدَمَهُ عليها، فَتَقُولُ: قَطْ قَطْ فَهُنالِكَ تَمْتَلِئُ ويُزْوَى بَعْضُها إلى بَعْضٍ. وفي روا ية : احْتَجَّتِ الجَنَّةُ والنَّارُ**). واه البخاري ومسلم .

ويقول تبارك وتعالى: (**يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلْ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ**) [ق:30]، وهذا يدل على أن فيها إدراكاً، فالنار لها لسان، بل لها أذنان وعينان، كما قال عليه الصلاة والسلام: (**يخرج عنق من النار يوم القيامة له عينان تبصران، وأذنان تسمعان، ولسان ينطق، ويقول: إني وكلت بثلاثة: بكل جبار عنيد، وبكل من دعا مع الله إلهاً آخر، وبالمصورين**).

وأيضاً النار من شدة انفعالها وولائها لله سبحانه وتعالى وعدائها لأعداء الله تتغيظ من الحنق والحقد والبغض للكافرين، كما قال تعالى: (**إِذَا رَأَتْهُم مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً**) [الفرقان:12]، وفي قوله: (**مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ**) إشارة إلى حدة بصرها.

ويقول تعالى: (**إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ* تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ**) [الملك:7-8]، أي: تتقطع من الغيظ؛ لأنها تعادي أعداء الله، وتتولى تعذيبهم والانتقام منهم.

كذلك جاء ما يدل على أن الجنة أيضاً يخلق الله فيها إدراكاً : يقول عليه الصلاة والسلام: (**إن الجنة لتشتاق إلى ثلاثة: إلى علي وعماروسلمان**) [126]، رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

وكذلك هذه النار التي نراها في الدنيا أيضاً لها إدراك، وهي مطيعة لأمر الله، والدليل على ذلك قوله تعالى: (**قُلْنَا يَا نَارُكُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ**) [الأنبياء:69]. فخاطب الله النار فأطاعت أمره.

والدليل على ذلك أيضاً: أن عادة الأنبياء في الأمم السابقة في الغنائم أنهم كانوا إذا جمعوها بعد الجهاد تنزل نار من السماء فتحرق هذه الغنائم، فإذا أكلت النار هذه الغنائم فهذه علامة على أن

126- رواه الترمذي، وهو حسن بمجموع طرقه كما في صحيح الجامع.

الله تقبلها، فيكون ذلك علامة على قبولها، ويكون علامة على أنه لم يقع غلول، والغلول هو: السرقة من الغنائم، وذلك بأن يأتي واحد من الجنود فيسرق شيئاً قبل أن تقسم.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (غزا نبي من الأنبياء) ... إلى أن قال عليه الصلاة والسلام: (**حتى فتح الله عليه، فجمعوا ما غنموا، فأقبلت النار تأكله، فأبت أن تطعمه، فقال: فيكم غلول، فليبايعني من كل قبيلة رجل، فبايعوه، فلصقت يد رجل، فقال: فيكم الغلول فلتبايعني قبيلتك، فبايعته قبيلته، قال: فلصقت يد رجلين أو ثلاثة، فقال: فيكم الغلول، فأخرجوا له رأس بقرة من ذهب، فوضعوه في المال، فأقبلت النار فأكلته**)، رواه مسلم ، **والشاهد**: أن النار عندها تمييز وإدراك، فإنه لما حصل غلول في الغنيمة رفضت أن تأكلها، ولما أعيد ما غل منها أكلتها وتقبلها الله؛ لأن الله طيب لا يقبل إلا طيباً.

* * *   *   *   *   *   * * *

3-4/ عبودية القلم والعرش : أما القلم : فجاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم: (**إن أول ما خلق الله القلم قال له: اكتب، قال: رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة أي: تكلم القلم**) رواه أبو داود . **وهذا يدل على أن للقلم إدراكاً، وفي قوله: (رب) إقرار بالربوبية، يعني: يا رب!**

وأما العرش : فيكفي قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلمر: (**اهتز عرش الرحمن عز وجل لموت سعد بن معاذ**)، رضي الله تعالى عنه، وهذا الحديث متفق عليه، فإما أن العرش يوالي هذا العبد الصالح، وبسبب موالاته له اهتز سروراً واستبشاراً وفرحاً بقدوم روحه إلى الملأ الأعلى، أو اهتز من حزنه على موته، والله تعالى أعلم.

فهذه الجملة من النصوص تعكس هذا التوافق والانسجام بين عناصر هذا الوجود كله، وهذه الكائنات ليست عدوة لنا، وليس هناك شيء اسمه صراع مع الطبيعة، بل كلها جنود لله مطيعة منقادة، ونحن مطالبون أن ننقاد لله سبحانه وتعالى مع هذه الكائنات طوعاً واختياراً، وألا ندعها تسبقنا إلى هذه القضية، وهي قضية التوحيد، وعبادة الله سبحانه وتعالى، والخضوع له عز وجل، وتسبيحه، وتقديسه، وتنزيهه.[127].

* * *   *   *   *   *   * * *

127- عبودية الكائنات [1-2] - للشيخ : محمد إسماعيل المقدم - محاضرات - موقع إسلام ويب – بتصرف .

المبحث الثامن

مراتب البشر في القيام بعبودية الله تعالى

المرتبة الأولى : وهي أعلى المراتب هي: مرتبة الرسل والأنبياء، وأعلى مراتب الرسل هي مراتب أولي العزم من الرسل، وأعلاهم محمد عليه الصلاة والسلام، ثم عامة الرسل، ثم عامة الأنبياء.

والكلام في الحقيقة على عبودية الأنبياء فموضوع مهم جداً جداً، وما أكثر ما تكلم الناس فيه! لكن نشير إشارة عابرة؛ لأنه ليس هذا المقصود الأساسي من البحث. يقول تبارك وتعالى: **(قُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى)** [النمل:59]، وهم الرسل عليهم السلام، وقال عز وجل: **(وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ)** [الصافات:171]، فوصف الأنبياء بالعبودية له عز وجل، وقال أيضاً: **(يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ)** [النحل:2]، وقال أيضاً: وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ [الأنبياء:73] .

فهذا أشرف وصف يعتز به الأنبياء والمرسلون، وهو أنهم عباد لله تبارك وتعالى. ويقول عز وجل مبيناً عبودية نوح له: إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا [الإسراء:3]، ويقول أيضاً : **(فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُون وَازْدُجِرَ)** [القمر:9]، وقال أيضاً في حقه: **(إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ)** [الصافات:81]، وقال أيضاً: **(كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا)** [التحريم:10].

*** * * * * ***

أما إبراهيم عليه السلام فقال الله عز وجل في وصفه : **(إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ)** الصافات:81]، وقال: **(وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ)** [ص:45].

أما موسى فقال أيضاً فيه وفي أخيه هارون عليهما السلام: **(إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ)** [الصافات:122].

أما عيسى عليه السلام فكان أول ما نطق به في المهد أن قال : **(قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ)** [مريم:30]، وقال أيضاً في حقه: **(إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ)** [الزخرف:59]، وقال أيضاً: **(لَنْ يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلَّهِ)** [النساء:172].

أما خاتمهم وسيدهم صلى الله عليه وآله وسلم فقد وصفه الله بالعبودية في أشرف مقاماته فقال: **(وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً)**[الجن:19]، وقوله: **(عبد الله)** يقصد به الرسول عليه الصلاة والسلام، وهذا هنا في مقام الدعوة، وقال عنه كذلك في مقام الإسراء:

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيلاً) [الإسراء:1]، وقال عنه أيضاً في مقام الاعجاز : **(وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ)** [البقرة:23]. وقال أيضاً: **(أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَه)** [الزمر:36].

* * *   * * * *   * * *

المرتبة الثانية : مرتبة أصحاب الأنبياء والرسل، وهم الحواريون والأنصار والربانيون، وأفضل هؤلاء على الإطلاق هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهم خير أمة أخرجت للناس، يعني: أن أفضل الأمم بعد الأنبياء هم الصحابة، وأفضلهم أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم علي .. إلخ الترتيب المعروف؛ رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

فقد وصف القرآن أتباع الرسل بهذه العبودية، كمؤمن آل فرعون، وامرأة فرعون آسية بنت مزاحم، وكذلك سحرة فرعون، وأصحاب الكهف، والغلام، وأصحاب الأخدود، وكذلك مؤمن آل ياسين، أي: حبيب النجار .

مفهوم العبودية عند الصحابة [128]:

كان الصحابة رضي الله عنهم، كما يقول بعضهم: (**إني لأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي**)، فعندما ينام يحتسب هذه النومة هل هي عبادة؛ أم لا؟ لأنه يستعين بها على الطاعة، وهي القيام لصلاة الفجر، فالحياة كلها عبادة، والعمر كله عبادة، قال تعالى: (**قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**) [الأنعام:162] فالحياة كلها عبادة لله عز وجل، وكان الصحابي عمله كله ينصرف لله عز وجل، حتى اللقمة يضعها في فمّ زوجته له بها أجر، وهي عبادة، حتى الرجل إذا أتى أهله، كما سأل الصحابة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **أيأتي أحدنا شهوته ويكون له أجر؟ فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟ قالوا: نعم، قال: فكذلك إذا وضعها في حلال كان له أجر)** إذا عفَّ نفسه عن النظر إلى الحرام، وعن ارتكاب الحرام، وعفَّ هذه المسلمة التي بين يديه، فهي عبودية.

* * *   * * * *   * * *

128- العبودية الصحيحة - للشيخ : سفر الحوالي – محاضرات مفرغة – إسلام ويب – بتصرف.

المرتبة الثالثة : تليهم مرتبة العلماء الذين هم ورثة الأنبياء [129].

المرتبة الرابعة : مرتبة المجاهدين في سبيل الله تبارك وتعالى، وأعلى مراتب المجاهدين مرتبة الذين استشهدوا بالفعل في الجهاد في سبيل الله.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله أي الناس خير؟ قال : (رجل جاهد بنفسه وماله، ورجل في شعب من الشعاب: يعبد ربه، ويدع الناس من شره). رواه البخاري (6494) ومسلم (1888).

أقوال العلماء في شرح هذا الحديث :

قال القاضي عياض رحمه الله تعالى : هذا ليس على العموم، وإلا فالأنبياء والصديقون أفضل، وكذلك العلماء بما شهدت الأحاديث الصحيحة بذلك، والمراد من أعمال البر غير ما ذكرنا [130].

129- المفاضلة بين الجهاد في سبيل الله وبين طلب العلم تكون بحسب اختلاف الأحوال ، فإذا كان الجهاد فرض عين ، فالجهاد أفضل من طلب العلم ، بل يتعين الانتقال إليه. وإذا كان فرض كفاية فطلب العلم أفضل .

وكذلك بالنسبة للأشخاص : فمن كان متصفا بالشجاعة والإقدام والنكاية بالعدو فالجهاد في حقه أفضل ، وخاصة إذا كان استيعابه للعلم ضعيفا .

ومن كان مُجِدا في الطلب ، سريع الفهم ، قوي الحفظ ، معروفا بالنبوغ : فطلب العلم في حقه أفضل ، وخاصة إذا كان ضعيف البنية ، وليست عنده دراية كافية بأساليب الحرب والقتال .

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله : " لا شك أن طلب العلم الشرعي من أفضل الأعمال الصالحة ، بل هو معادلٌ للجهاد في سبيل الله ، كما قال الله تبارك وتعالى : (وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ) التوبة/122 ، فبين الله عزوجل أن المؤمنين لا يمكن أن ينفروا جميعاً للجهاد في سبيل الله ؛ لأن ذلك يؤدي إلى تعطل المنافع الأخرى التي لا بد للإسلام من القيام بها .

فطلب العلم الشرعي لا شك أنه معادل للجهاد في سبيل الله .

واختلف العلماء أيهما أفضل: العلم أو الجهاد ؟ ولا شك أن منفعة العلم أعم من منفعة الجهاد ؛ لأن منفعة الجهاد إذا تحققت فإنما هي في جزءٍ معين من الأرض، لكن العلم ينتفع به كل الناس ، فالعلم من حيث المنفعة هو أفضل من الجهاد ، لكن مع ذلك قد نقول لبعض الناس : الجهاد في حقهم أفضل ، ونقول لآخرين: العلم في حقهم أفضل ، ويظهر هذا بالمثال : فإذا كان هناك رجل شجاع قوي عالمٌ بأساليب الحرب ، ولكنه في طلب العلم رديء الحفظ صعب عليه والفهم قليل ، فهذا نقول: الجهاد في حقه أفضل لأنه أنفع .

وآخرليس بذاك في الشجاعة ، ومعرفة أساليب الحرب، لكنه قوي في الحفظ ، قوي في الفهم ، قوي في الحجة ، قوي في الإقناع ، فهذا نقول: طلب العلم في حقه أفضل .

إذاً الخطوط التي نفهمها الآن :

- طلب العلم معادل للجهاد في سبيل الله .

- أيهما أفضل؟ يختلف هذا باختلاف الناس ، فبعض الناس نقول له : الجهاد في حقك أفضل ، وبعض الناس نقول له : العلم في حقك أفضل ، حسب ما يقتضيه الحال " انتهى من "لقاء الباب المفتوح" (164/ 2) بترقيم الشاملة .

130- إكمال المعلم – للقاضي عياض - (310/6) .

وقال الأُبي رحمه الله تعالى : - بعد نقل كلام القاضي عياض – قلت : هذه مزية والمزية لا تقتضي التفضيل، ولذلك لا يقال لمن اتفق له ذلك: إنه أفضل من الصحابة [131].

وقال القرطبي رحمه الله تعالى : «قوله: «أي الناس أفضل؟» أي الناس المجاهدين؟ بدليل أنه أجابه بقوله: «رجل مجاهد بنفسه وماله»، ثم ذكر بعده مَن جاهد نفسه بالعزلة عن الناس؛ إذ كل واحد من الرجلين مجاهد؛ فالأول للعدو الخارجي، والآخر للداخلي، الذي هو النفس والشيطان فجاهدهما بقطع المألوفات والمستحسنات من الأهل والقربات والأصدقاء والأوطان والشهوات المعتادة وكل ذلك فرارا بدينه وخوفًا عليه [132].

وقال العيني رحمه الله : «قالوا هذا عام مخصوص تقديره: هذا من أفضل الناس؛ وإلا فالعلماء أفضل، وكذا الصديقون كما جاءت به الأحاديث، ويدل على ذلك أن في بعض طرق «النسائي» لحديث أبي سعيد: «**إن من خير الناس رجلا عمل في سبيل الله على ظهر فرسه**»[133].

المرتبة الخامسة : تليهم مرتبة المحسنين من أهل الإيثار والصدقة ودفع كربات الناس.

المرتبة السادسة : يليها منزلة الصالحين المحافظين على الفرائض والنوافل، أولياء الله عز وجل، وهؤلاء هم الموصوفون بأنهم سابقون في الخيرات.

المرتبة السابعة : يلي ذلك أهل النجاة الذين أدوا الفرائض وتركوا المحارم، بلا زيادة ولا نقص، وهؤلاء الذين ينطبق عليهم وصف المقتصد.

المرتبة الثامنة : يليهم الذين أسرفوا على أنفسهم وغشوا الكبائر مع أدائهم الفرائض، وهم المستحقون لوصف الظالم لنفسه.

* * *   * * * *   * * *

131- إكمال إكمال المعلم – للأبي -(233/5) .

132- المفهم بشرح صحيح مسلم – للقرطبي –(722/3) .

133- عمدة القاري – بشرح صحيح مسلم - (83/14) .

وختاماً : اللهمَّ لك الحمدُ كلُّه اللهمَّ لا قابضَ لما بسطتَ ولا باسطَ لما قبضتَ ولا هاديَ لما أضللتَ ولا مضلَّ لمن هديتَ ولا معطِيَ لما منعت ولا مانعَ لما أعطيتَ ولا مقربَ لما باعدتَ ولا مبعدَ لما قربت اللهمَّ ابسطْ علينا من بركاتِك ورحمتِك وفضلِك ورزقِك اللهمَّ إني أسألُك النعيمَ المقيمَ الذي لا يحولُ ولا يزولُ اللهمَّ إني أسألُك النعيمَ يومَ الغلبةِ والأمنَ يومَ الخوفِ اللهمَّ عائذٌ بك من شرِّ ما أعطيتنا وشرِّ ما منعت منا اللهمَّ حبِّبْ إلينا الإيمانَ وزيِّنْه في قلوبِنا وكرِّهْ إلينا الكفرَ والفسوقَ والعصيانَ واجعلنا من الراشدينَ اللهمَّ توفَّنا مسلمين وأحيِنا مسلمينَ وألحقنا بالصالحينَ غيرَ خزايا ولا مفتونينَ اللهمَّ قاتلِ الكفرةَ الذين يُكذِّبون رسلَك ويصدون عن سبيلِك واجعلْ عليهم رِجزَك وعذابَك اللهمَّ قاتلْ كفرةَ الذين أوتوا الكتابَ إلهَ الخلقِ) [134].

تمَّتْ وللهِ الحَمْدُ والمنَّةُ

* * *   * * * *   * * *

134- حديث نبوي قال في مجمع الزوائد (رجاله رجال الصحيح) - (124/6) ، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد – حديث رقم (538) -الموسوعة الحديثية – الدرر السنية .